حين يغفو الحلم..

رواية

سماح حافظ

لِمَ لا نعبر ذكرياتنا مثلما نعبر الطريق؟!

يأسرنا ذاك الصندوق العجيب المليء بالأشخاص والأحداث والمواقف والروائح والموسيقى وحتى الصمت الثقيل في تلك الفترات الحزينة.

لماذا نحن بهذا الحزن ؟!

الفصل الأول

ليست الحياة قاسية؛ نحن القساة، ونحن المتألمون..

"هذا ما فعله العلم بنا"

هكذا قال وهو شارد ثم استفاق وكأنه انتبه لشيء هام جدًا واستطرد قائلا:

- لا ليس العلم من فعل هذا بل العلم الجاهل عن حقيقتنا. نعم نحن جهلنا من نحن فوصلنا إلى علم لا ينفعنا. أعداؤنا على هذه الأرض ليس إبليس ولا الطبيعة ولا حتى غرائزنا. عدونا الحقيقي هو جهلنا بحقيقتنا وحدود قدراتنا. حين تظن النملة أن هذا الخيال الضخم المنعكس على الجدار لها وليست قدم في طريقها لسحقها، فهل نلوم القدم أم النملة عندما تُدهس لأنها لم تحاول الهرب؟

ألقى بالسؤال نحوي وصمت وهو يتطلع إليَ. ولم أدرِ بماذا أجيبه! فلا أفهم مقصده من هذا المثال ولا السؤال ولا تلك البداية الغريبة لكلامه!

كان يجلس بجواري في انتظار وصول الحافلة، رجل كهل، بل هِرم حتى أنني تساءلت كيف يخرج وحده هكذا دون خوف! لو وصلت لهذا العمر لخشيت من السير وحدي في الطريق فلربما تخذلني قدمي أو تصيبني نوبة قلبية. نصبح كالأطفال حين نصل للنهاية وكأننا نعود لنقطة الصفر، فلا قُدرة ولا شجاعة ولا حتى وعي.

لهذا لم آخذ ما يقوله على محمل الجد، فالرجل يهذي بالتأكيد ولا يقصدني بكلامه ولا ينتظر مني إجابة.

-ها.. لماذا لا تجيب؟!

فاجأني سؤاله الثاني، فلقد كان واضحًا ومباشرًا. ووضح أنه يتحدث إليَ ويعي ما يقول وينتظر إجابه!

فكرت دقيقة ثم قلت:

- حسنًا، أظن أن اللوم على القدم، لا حق لها في سحق النملة.

بدت إجابتي عميقة جدًا على سؤال تافه. نعم أرى السؤال تافهًا ولا منطق له. نملة وقدم وخيال وظن! ما هذا الهراء!

لمحت ابتسامة ساخرة في عيني محدثي الغامض ثم تدحرجت الابتسامة إلى شفتيه، ثم بشكل هيستيري تراقصت في جنون على كل ملامحه وجسده وأخذ في الضحك واهتز جسده بقوة لا تتناسب مطلقًا مع هيكله الضعيف المحني على نفسه كالقوس! "مجنون بالتأكيد" هكذا كانت نظرتي إليه تقول.

أعقب ضحكه الغريب هذا بسلسلة متصلة من السعال حتى خشيت أن يسقط ميتًا بجواري! ولولا أنني في حاجة شديدة لركوب تلك الحافلة التي انتظر مجيئها لتركته ومضيت.

- تبدو غريبًا عن هذا الكوكب يا بني. من أي الكواكب أنت؟

" هل هذا سؤال حقيقي؟!" هكذا سألت نفسي. قررت مسايرة الرجل في جنونه حتى تأتي الحافلة وينتهي هذا المشهد العبثي.

- أنا من كوكب زحل. هل زرته من قبل؟

فوجئت به يقول بجدية:

- لم تأتني فرصة لزيارته ولكني سعيد بتعرفي على أحد سكانه.

ثم مد يده الجافة ذات العروق الكثيرة وهو يقول بابتسامة لم أعرف تحديد نوعها:

- أنا رفيق الكامل من كوكب الأرض.

لم أتمالك نفسي من الضحك ولكنني مددت يدي إليه وصافحته وأنا أحاول كتم ضحكتي لأقول:

- تشرفنا أستاذ رفيق. معك عصام علي من كوكب زحل الشقيق.

هذا الجنون لم يتوقف عند هذا الحد فالرجل بدى كطفل استهوته لعبة فتعلق بها ولا يريد تركها!

- هل أعجبتك الأرض؟ هل نزهتك فيها تسير على ما يرام؟

حاولت مجاراته فقلت ساخرًا:

- نعم فأنتم شعوب طيبة وودودون، وكوكبكم جميل به أصناف جيدة جدًا من الطعام ومذاقها رائع.

- وأنت منافق كبير. يبدو أنك مكثت فترة طويلة عندنا. ولكن اعجبتني كلمة "وودودون" كلمة طويلة مكونة من حرفين فقط (الدال والواو). هذا الحظ لا يأتي لكلمات كثيرة! محظوظة هي حقًا.

"تم حسم الأمر. الرجل بالفعل مجنون" هذا ما فكرت فيه بعد عبارته الأخيرة. شعرت ببعض الخوف، اخشى المجانين أكثر من خشيتي من المجرمين. على الأقل المجرم يمكن التفاهم معه والوصول إلى صفقة ما، ولكن ماذا عسانا نفعل إن هاجمنا مجنون!

حاولت نفض خوفي فسن الرجل وهزال جسده لا يمنحانه أي نقاط تفوق. فأنا شاب قوي في الثلاثين من عمري وأستطيع هزيمته بسهولة.

جاءت الحافلة ففرحت بقدومها ونهضت مسرعا وتوجهت إليها. ولكنني سمعت الرجل يهتف بي:

- لا تركب تلك الحافلة.

فالتفت إليه مندهشًا فأردف:

- لا تكن مثلهم، لا تكن من أهل الأرض. ابقَ كما أنت، منافقًا من أهل زحل.

ثم انطلق في الضحك وأعقب ضحكته بزلزال وتوابعه من السعال. فأعطيته ظهري ثانية وصعدت إلى الحافلة وأنا أتمنى ألا ينهض ويصعد إليها، وبالفعل لم يتحرك حتى تحركت ومضت في طريقها..

كان هذا اليوم عجيبًا منذ بدايته، فالهاتف صرخ في أذني ليوقظني على خبر سيء جدًا. وهو وجوب ذهابي إلى العمل لأن زميلي أصابه مرض مفاجئ وعليَ أن أحل محله في يوم إجازتي. ثم أجد سيارتي معطلة فاضطر للسير حتى موقف الحافلة، واجلس بجوار هذا الرجل الخرِف. أي يوم هذا!!

تنهدت وأغمضت عيني دقيقة لأنفض عن عقلي تلك اللحظات السيئة الماضية واستعدل مزاجي لأبدأ يومي كما يجب.

وصلت إلى مقر عملي، هذا المبنى الضخم الذي يحوي عشرات الأقسام والموظفين لا يستطيع أن يتركني يوم واحد أرتاح فيه! تبًا.

أعمل في مهنة أحبها. أقوم بتصميم الإعلانات لشركات عملاقة ومنتجات شهيرة. أمتلك الكثير من الخيال والإبداع لتصميم تلك الإعلانات التي تنال الإعجاب دائما وأنال مقابلها الكثير من الأموال. أعيش في بيت جميل مع والديَ وأختي الصغيرة. "أيقونة الفرح" هكذا أسميها. فهي بهجة هذا

البيت بمزاحها وشقاوتها. لم تتجاوز السابعة عشرة وتضج بالحياة والذكاء أكثر مني. هذا ليس معناه أنني لا أستمتع بحياتي. ولكنها تحب الحياة، أما أنا فأحياها وأحب ما فيها من مُتع فقط. لا أظن هذا مفهومًا بشكل واضح ولكنني لا أرهق نفسي في تفسير أي شيء سوى كيف أجعل هذا المنتج البسيط الذي يطلبون مني الإعلان عنه يبدو كقنبلة مفاجآت. فهذا عملي. أن أجعل الناس يشترون ما لا يحتاجونه. لهذا يلجؤون إليَّ عندما يعرض الناس عن منتج ما ويتجهون لغيره. أعتبر نفسي ساحرًا وليس مخادعًا كما تقول لي أختي أحيانا حين تشاهد أحد إعلاناتي البراقة. فأنا لا أخدع أحدا. هم من يخدعون أنفسهم حين يجعلون أعينهم تفكر وتقرر بدلا من عقولهم.

كالعادة وجدت أحمد يجلس على مكتبه ويتحدث في هاتفه ويبتسم..

أحمد من أولئك الشباب اللاهث وراء الحب، يوهم نفسه بالحب ليشعر بالحياة.. هكذا يقول لي.

ولم أفهم ما أهمية الحب طالما أن النتيجة في النهاية واحدة! لا فرق بيننا سوى أنه يقنع نفسه أنه يحب هذه الفتاة أو تلك حتى ينالها وأنا أتجه رأسًا إلى ما أريد.

- تأخرت يا عصام.

- اكمل مكالمتك ثم تحدث معي عن التأخير، كلانا تأخر يا صديقي.

ابتسم أحمد وعاد للاهتمام بمن تهاتفه واتجهت إلى مكتبي وجلست في هدوء.

كان يوما عاديا من أيام العمل لولا هذا الرجل الغريب الذي تحدث معي بتلك الطريقة الغريبة في موقف الحافلة وتعطل سيارتي ومجيئي للعمل يوم عطلتي.

أغلق أحمد الهاتف والتفت إليَ:

- اخبرني كم لعنة لعنتها لي بعد أن أبلغته بضرورة حضورك إلى العمل اليوم عوضًا عن حامد؟

- لم ألعنك كثيرًا فاطمئن.

ابتسم بمرح وهو يقول:

- يا لطيبة قلبك أيها الملاك!

ثم أردف:

- المدير يريدك أن تحضر اجتماع اليوم مع شركة العطور، اجهز فالاجتماع بعد دقائق.

تجهزت بالفعل وحضرت الاجتماع وناقشنا ما يريده العميل لإعلان منتجه واستأذنت بعد ذلك لأعود إلى البيت.

في البيت كان ينتظرني خبرًا كارثيًا، لم أفكر فيه من قبل مع أنه حقيقة مؤكدة كالموت.. فهو حقيقة مؤكدة وأيضًا لا أفكر فيه.

استقبلتني ملامح أمي الملتاعة على الباب. وحين سألتها أخبرتني بأن خطاب استدعاء سناء لرحلة الخصوبة وصل اليوم. كان الخبر صادمًا. لم أفكر أن هذا اليوم سيأتي رغم أنني أعرف بأنه لا بد أن يأتي..

****

تنهد عصام ولم يقو على قراءة كلمة أخرى. أغلق مذكراته وعاد بظهره إلى الوراء وأغلق عينيه..

كثيرًا ما حاول قراءة مذكراته كلها ولكنه يصل إلى هذا الجزء ولا يستطيع الاستمرار في القراءة. تجثم على قلبه ظلال الذكرى فيفقد قدرته

على المقاومة ويستسلم. يظن دائما إن استطاع الاستمرار حتى لحظة رحيل أخته فسيستطيع تجاوز شعوره بفقدها وهذا الحزن العميق الذي ينهش داخله بقسوة.

****

قبل هذا بسنوات عديدة كان الوقت يمر بطيئا، المجاعات في كل مكان، ملايين الجوعى يتساقطون صرعى ما بين احتضار وموت، تسببت التكنولوجيا الرهيبة التي وصل إليها الإنسان إلى ارتفاع حرارة الأرض، الجفاف الذي حدث لسنوات نتيجة ارتفاع تلك الحرارة لم يكن مفاجأة، ولكن القلة فقط هي التي استطاعت الاستعداد له.

فعامة الشعوب ليست لحياتهم أهمية ولا قيمة للعبيد سوى خدمة أسيادهم والتضحية بهم إن لزم الأمر. بدأت المجاعة تزحف ببطء حتى جف نبع الحياة في أوردة الفقراء، لم يتبق في كل دولة سوى هؤلاء؛ أصحاب كل شيء، ومالكي العالم .

شعروا بإحساس من تم الحكم عليه بالإعدام ثم في آخر لحظة وقبل تنفيذ الإعدام بدقيقة جاءه الحكم بالبراءة. فما خلفوه ورائهم من أمراض وهزال وموت تم انتشالهم منه بفضل أموالهم وذكائهم، أما ضمائرهم فليست لها

في تلك المعادلة حساب. ممنوعة من الصرف في جملة الحياة، ولا تساوي سوى صفر الشمال في أي عملية حسابية.

ونشأ هذا العالم الجديد، عالم ما بعد المجاعة قائم على نفس تلك الطبقات التي كانوا يعيشون فيها في عالمهم الأول البائد، فالأغنى هو الأعلى والأقل غنى يتدرج مقامه حسب ما يملكه. فلن تصلح حياة كل من فيها أسياد، فمن سيقوم بالعمل الشاق والكل من المرفهين؟!

لهذا تم اعادة ترتيب الطبقات على نفس النسق القديم بشكل تلقائي. فبعض من كان في العالم البائد في مستوى لائق أو من الأغنياء، وجد نفسه في درجة الفقراء لأنه الأقل مالا. ولهذا لم تتوقف الكراهية ولا الحقد الطبقي، وتكون عالمًا جديدًا فيه كل ما كان في العالم القديم من بشاعة..

و نشأت بعض المشكلات لم تكن في حسبانهم، فتلك الفئة العالية وهذا المجتمع الناشئ لا يميل نسائه ورجاله إلى العمل الشاق، لم يعتادوا على بذل الجهد. لهذا فإن عربة الحياة كانت تئن تحت ثقل وبطء حركتهم، فهم لا يمتلكون تلك المهارات اليدوية التي يمتلكها الفقراء في العالم البائد. هؤلاء المرفهون جاهلون. اعتمادهم الكبير كان على خدامهم، وهذا نزع منهم ملكة الموهبة الحِرفية. حتى مهندسيهم وأطبائهم كانوا في الأساس

يعتمدون على مساعديهم! والآن لا مساعدين، وعليهم أن يتدبروا أمرهم. ولأنهم بشر، والبشر يتكيفون مع الظروف المختلفة وهذا سبب استمراريتهم؛ بدأوا في التكيف، لكن ببطء. وكأنهم في بداية الخليقة، حيث الكثير يجب أن يتعلموه من الصفر.

ولكن هذا لا شيء أمام أكبر مشكلة واجهتهم، وهي عزوف الرجال عن الزواج والنساء عن الانجاب بكثرة كما كان يفعل الفقراء في العالم البائد، وهذا جعل نسب الوفيات بينهم تعلو نسب المواليد، وهذا معناه الانقراض على المدى البعيد إن لم يجدوا الحل قبل حلول الكارثة.

عاشوا في عالمهم الجديد بثقافاتهم القديمة، والتي ظهر عوارها وتسببها في تآكل مجتمعهم الناشئ ببطء. ولهذا نشط علمائهم للبحث عن طرق لرأب هذا الصدع ، ونشط حكامهم لسن قوانين تجبر النساء على الإنجاب وتحريم موانع الحمل. وتجبر الشباب على الزواج المبكر، وتجبر الآباء على تسهيل المهور وتكاليف الزواج وتيسير الأمور لحماية مجتمعهم من الانقراض. وككل الشعوب، كان هناك من يضرب بالقوانين عرض الحائط ومن يلجأ إلى التلاعب بها والفرار من بين ثغراتها، وأصبحت الكارثة على وشك الهبوب.. خاصة أن نسبة الإناث أصبحت هي الأخرى تسير حثيثا لتعلو نسبة الذكور، وهذا ما جعل الكارثة مزدوجة.

ولكن العلماء وجدوا الحل. بالبحث والتنقيب وجدوا منطقة تقع في الغابات الاستوائية، كان معروفا قبل تلك الكارثة المجاعية التي اجتاحت العالم أن سكان تلك المنطقة يمتازون بالخصوبة الشديدة للإناث فيها. وأكتشف أحد الباحثين السر في هذا! وهو وجود نوع من الأعشاب ينمو بشكل طبيعي في تلك المنطقة وكانت النساء يستخدمنه كعشبة مغذية ولا يعلمن فائدته الأخرى في الخصوبة، ولأن العالم القديم كان يعج بالبشر فلم يهتم أحد حينها بهذا البحث ولا بتلك العشبة، لصعوبة الوصول لتلك المنطقة الاستوائية التي تقع قرب خط الاستواء وفي عمق الغابات شديدة الحرارة والخطورة، وكانت تلك العشبة هي حلهم الوحيد لحماية عالمهم من الانقراض. ولكن وجدوا مشكلة أخرى متعددة الأفرع. فأولا هذه العشبة صعب الوصول إليها، ولا يمكن جمعها وتخزينها فهي تفسد بعد دقائق من قطفها ولهذا كان نساء تلك القبائل يأكلنها وهي على أرضها؛ يقطفونها ويأكلونها فورًا. ولكن كيف يتسنى لنساء وفتيات هذا العالم الجديد أن يفعلن هذا!

هذا هو السؤال المؤرق الذي أخذ منهم شهورا وسنوات للوصول إلى قرار بشأنه، وفي النهاية وتحت ثقل الشعور بالخوف من الانقراض أصدرت كل دولة قرارها بإرسال الفتيات اللاتي يبلغ عمرهن السادسة

عشرة فما فوق إلى تلك المنطقة الاستوائية في شكل مجموعات يتم تنسيقها ما بين الدول وبعضها حتى لا يحدث تزاحم وتقاتل بينهم وليعطوا وقتا مناسبا للعشبة نفسها بأن تنمو بين كل هجوم وآخر من تلك المجموعات.

كان يتم تجميع الفتيات وإرسالهن مرة كل عام، تلك المنطقة ليس بها أماكن تصلح لهبوط الطائرات وكان الوصول إليها شاقا جدًا. بعد أول رحلة اكتشفوا كارثة.. وهي أن بعضهن اصبن بنوع غير معروف من التسمم يظهر على شكل طفح ويسبب تآكل في الجلد ومن ثم الموت بعد أن تكون الفتاة عانت من آلام مبرحة لا تطاق على مدار عدة أشهر. وبالتحليل والبحث علموا أنه ينمو وسط عشبة الخصوبة عشبة أخرى سامة وهي تشبه العشبة الأصلية تشابها يكاد يكون متطابقا وفشلت كل المحاولات في تعليم الفتيات كيفية التمييز بينهما أو حتى تعليم الحراس المصاحبين لهن. واسقط في يد الجميع.. فتلك المشكلة تسببت في حدوث ما يشبه الثورات بين الفتيات وأسرهن والذين اتهموا الحكومات بالتضحية ببناتهن لبقاء الدولة من أجل أن يبقوا هم حكام عليها. فبالنسبة للعامة ما قيمة الدولة والشعب نفسه يموت!

وكان لا بد من حل؛ بعض الدول وتحت وطأة الضغط الشعبي استسلمت وأوقفت تلك الرحلات الانتحارية واستسلموا لفكرة الانقراض، والبعض رفض وعاند وصمم على استمرارها فنشأت فيها ما يسمى بجماعات رافضي الخصوبة، وجماعات حماية الفتيات، وجماعات اسقاط النظام وبدأت الأمور في الغليان..

الفصل الثاني

وحيث يسير الهوى تنبت الخطايا، وعند الندم تتفتح الأزهار.

- أشعر بأننا مراقبون، علينا أن نوقف اجتماعاتنا لبعض الوقت.

هكذا بدأ عصام كلامه في الاجتماع الذي طلب عقده بشكل فوري بين أفراد جماعته المسماة "لا للموت" التي تم تكوينها لحماية الفتيات ومحاربة النظام القائم ومحاولة إسقاطه.

عصام هو مؤسس تلك الجماعة، ماتت أخته بعد عودتها من أحدى رحلات الخصوبة، وبعد أن عانت ثلاثة أشهر متواصلة من آلام لا تطاق؛ كان يسمع صرخاتها فيموت وجعا وحسرة وغضبا لعجزه عن حمايتها أو التخفيف عنها. كانت رحلات الخصوبة قد بدأت بعد عام من ولادة أخته، لهذا كان يعلم بها ويعرفها ولكنه لم يبالِ فأخته لا تزال صغيرة ولم يشعر بأنها تكبر حتى جاءهم ذلك الخطاب المشؤوم الذي يخبرهم بأن عليها أن تستعد وتسلم نفسها لمقر وزارة الخصوبة لإعدادها وتجهيزها للرحلة

القادمة بعد الكشف عليها والتأكد من صحتها وقدرتها على اجتياز تلك الرحلة المضنية. وذهبت وكان قدرها أنها أكلت العشبة الخاطئة.

موتها أثر فيه، بل ذبحه ذبحا.. أخته الوحيدة، مصباح البيت المنير، النجمة التي تركت السماء وسكنت بينهم، بعد موتها تحول البيت لمقبرة، يعيش فيه ثلاثة أموات، أبيه وأمه وهو.. كان أشد ما يخافه أن يفقد امه أيضا، فموت سناء شقيقته قد حطمها وجعلها كخيال الظل، بلا لون أو روح.

****

- هل لديك معلومات مؤكدة أم هو مجرد شعور؟

ذاك السؤال كان من أحمد صديقه وزميله ورفيق عمره.

- لا مجرد شعور وبعض الملاحظات؛ فبعض الوجوه التي لا أعرفها أصبحت مألوفة، وتكررت مرات رؤيتي لها.

من باب الحذر علينا أن نتوقف عن الاجتماع فترة.

- لا أحب هذا يا عصام، علينا أن نستمر ونضع خطتنا قبل أن تبدأ رحلة الخصوبة القادمة، كما أن هذه فرصتنا للانقضاض خاصة أن الشعب معنا وقد فاض به الكيل وبالتأكيد سيساند حركتنا.

- لا يا أحمد لن يتحرك الشعب معنا بهذه البساطة، يحتاج أولا إلى الأمل النابع من الثقة فينا، يجب أن يرى قوتنا وقدرتنا على إحداث التغيير، هذا ما سيعطيه الأمل ومن ثَّمَ سيلتحم بنا ويؤيدنا. نحتاج لبعض الوقت وتحرك مدروس قبل خطوتنا الكبرى، وهذا يتطلب منّا الصبر والحذر حتى نتأكد بأننا لسنا مراقبين.

هز الجميع رؤوسهم اقتناعا بما قاله عصام، وتم الاتفاق على الافتراق ثم العودة للاجتماع بعد شهر واحد في نفس المكان.

عاد عصام إلى بيته وشعر برغبة في الحديث مع والده.

والد عصام كان محاميا شهيرًا ولكنه تقاعد منذ فترة قبل وفاة ابنته بعام واحد. يقضي معظم وقته في حجرة المكتبة الخاصة به، كره النظام مثل ابنه، ولكنه كان أقل منه حماسة في فعل أي شيء. وأصبح كمن ينتظر الموت بين كتبه ومكتبه.

وهذا ما كان يُشعر عصام بالحنق، رغم حبه لأبيه واحترامه له طوال عمره، إلا أن استسلام أبيه ولهجة الرضا بالأمر الواقع كانت تغضبه.

فما الذي يمكن أن يخسروه بعد فجيعة خسارتهم لسناء!

سأل عصام أبيه بعد أن دخل عليه في مكتبه:

- كيف كان والدك يا أبي؟ هل كان يشبهك؟

رفع والده رأسه عن الكتاب الذي كان يقرأ فيه ونظر إليه بتمعن وتركيز، فهو يعرف رأي ابنه فيه ويعلم أنه حانقا عليه بسبب جلسته الهادئة معظم الوقت، حرك شفتيه ببطء قائلا:

- بل يشبهك أنت يا عصام، كان مدافعا عن أفكاره، قاوم الظلم الذي يراه في كل مكان، فهو يعلم أن دولتنا هذه قامت على أنقاض دولة أكبر وبشر أفضل، وأننا هنا جماعة الأشرار، حيث لا أحد يحب الآخر أو يشعر بالسعادة، كل شيء خاطئ تم بين جنبات هذا الوطن.

- ولِمَ لم يحاول هو ومن مثله التغيير والتمرد؟!

- كانت لا تزال مشاهد المجاعات والموت في أذهانهم حية، كما أن الجميع أشرار لا تنسى هذا.

- وهل أنت شرير يا أبي؟

أطرق الأب قليلا، ثم نزع نظارته وعاد بظهره للوراء في مقعده وقال بصوت هادئ يشوبه المرارة:

- لا أحد منا بريء يا ابني حتى أنت.

نظر إليه عصام في دهشة فعاجله الأب بعبارة أخرى:

-الذي أخشاه حقيقة هو أن تصبح أكثر شرًا منّا.

- لا أظنك تتحدث عن قناعة بما تقول! الباحث عن الحق لا يعرف طريق الشر.

- النفوس خادعة يا عصام، لا تشعر بالسقوط إلا بعد أن تنزلق قدمك بالفعل.

أشاح عصام بيده واعطى ظهره لوالده وقال بحنق وهو ينصرف:

- لا تمنح نفسك صك الحكمة، نحن نحاول اصلاح ما افسدتموه أنتم، لن نكون مثلكم أبدًا.

كانت كلمات عصام موجعة لأبيه حتى أنه لم يرد، واكتفى بالنظر إلى ولده وهو ينصرف.

خرج من البيت وتجنب المرور بحجرة أمه، فرؤيتها تصيبه بألم شديد في قلبه. فحزنها وملامحها التي تذكره بأخته المتوفاة كانت أقسى مما يحتمل في تلك الأيام القاسية وبعد هذا الغضب الشديد الذي يتأجج في صدره.

خرج وهو لا يدري إلى أين يذهب، فاجتماعه بأصدقائه خطر الآن والأفضل أن يبتعد عن كل من يعرفه ويحبه.

ولكنه حين كان يسير على غير هدى جاءته مكالمة على هاتفه، اخرجه ونظر إلى الرقم فلم يعرفه، تردد في الرد ولكنه حسم أمره سريعا وضغط زر استقبال المكالمة ووضع الهاتف على أذنه دون أن ينطق بكلمة.

جاءه من الطرف الآخر صوت هامس، صوت فتاة تسأل بتردد:

- أستاذ عصام؟

- نعم أنا، من؟!

- أنا ليلى، هل يمكن أن نتقابل؟

أجابها بحذر:

- عفوا ولكنني لا أعرفك، ما الأمر؟!

جاءه الصوت أكثر خفوتا:

- ستعرف كل شيء في لقاءنا، أرجوك لا ترفض.

تردد عصام، فالأمر يبدو مريبا وربما هو كمينا له، ولكن إن كانوا يريدون القبض عليه فما حاجتهم لفتاة ومكالمة بهذا الشكل؟! يستطيعون القبض عليه الآن أو في بيته!

حسم أمره وأخذ نفسا عميقا:

- حسنا متى سنتقابل؟

- الآن

-الآن؟! أين؟!

لم تأتهِ إجابة، ولكنه لمح سيارة تأتي مسرعة نحوه، ظن لأول وهلة أنها قادمة لدهسه، ولكن قبل أن تصل إليه ببضع سنتيمترات انحرفت بشكل مفاجئ وتوقفت تحت ضغط المكابح بصوت شديد أثار التوتر في عروقه ولكنه اكتفى بالضغط على قبضته ورسم الهدوء على ملامحه، فلا يريد أن يظهر أبدًا بمظهر الخائف بأي شكل.

بعد توقف السيارة رأى يد فتاة تخرج منها وتشير إليه بأن يقترب ويركب.

اتجه بخطوات ثابتة نحو السيارة وفي عقله كتلة سميكة من علامات الاستفهام ثقيلة الوزن!

فتح باب السيارة وجلس بجوار قائدتها ونظر إليها فوجدها فتاة عشرينية سمراء دقيقة الملامح في رقة برغم تلك النظرة المريبة التي كانت ترمقه بها.

انتظر أن تبدأ هي بالحديث ولكنها لم تتكلم، فقط ضغطت بنزين السيارة وانطلقت بها.

آثر عصام الصمت طوال الطريق وعقله يفكر في من تكون هذه الفتاة وما الذي تريده منه؟!

طال الصمت حتى بدأ يتململ ويشعر بالسئم والفتاة مثبتة عيناها على الطريق ولا تلتفت إليه.

وأخيرًا اوقفت السيارة في طريق خال وضيق وسمعها تقول بصوت هادئ:

- اتبعني من فضلك.

فترجل عصام من السيارة وهو ينظر بحذر حوله ويحاول أن يستكشف هذا المكان المريب، فلقد كان منطقة قديمة يبدو أنها خالية من البشر برغم رؤيته لبعض البيوت البسيطة والحوانيت الصغيرة المغلقة.

سارت الفتاة في اتجاه بيت من طابقين، اخرجت من جيب معطفها مفتاحا وضعته في مزلاجه وفتحته.

تبعها عصام في صمت، ودلفا كلاهما وارتقا درجه حتى الطابق الثاني وحيث طرقت الفتاة على الباب الوحيد الذي بجوار السُلم، ولاحظ أن طرقاتها كانت منتظمة وذات ايقاع خاص.

فُتح الباب فظهرت فتاة أخرى، تبدو أصغر في العمر فلا تتجاوز السابعة عشر بأي حال من الأحوال.

دخلت ليلى وعصام من وراءها، فظهر لهما غرفة فسيحة بها أثاث بسيط ومائدة مستطيلة يجلس إليها ثلاثة فتيات تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشر والخامسة والعشرون على أفضل تقدير.

كان المشهد بالنسبة له غريبا وهو يجلس مع هاته الفتيات في هذا الاجتماع الغريب!

بدأت ليلى أخيرا الكلام وقالت وهي تنظر إليه:

- أولاً أرحب بك سيد عصام معنا هنا في مقرنا السري، ولأنه سري فهذا يدلل لك على مدى ثقتنا بك ورغبتنا في أن تكون واحد منّا وأن تساعدنا.

- وما الذي يمكن أن أساعدكن به؟ ومن أنتن؟!

ابتسمت ليلى وهي تقول:

- نحن نعلم كل شيء، ونعرف أنك ترأس مجموعة لمقاومة النظام وانقاذ الفتيات، ونحن الفتيات كما ترى ونريد مساعدتك.

كان وقع كلامها مفاجئا على عصام! أن تكون مجموعته معروفه وتم كشف سرها هكذا لهو شيء خطير! ولكنه كعادته بدا رابط الجأش ولم يظهر على ملامحه أي شيء مما يدور في رأسه وقال بهدوء:

- لا أعرف عن أي شيء تتحدثين آنستي، ولا أعرف ماذا تريدين مني بالضبط!

تنهدت ليلى ونظرت إلى الفتيات وهي تقول:

- كما أخبرتكن هو حذر جدًا وسيرهقنا حتى يصدقنا.

فقالت احدى الفتيات:

- لا وقت لدينا، يجب أن يصدقنا وأن نتحرك سريعا وإلا كل شيء سينتهي.

وقالت أخرى:

- نعم الوقت ليس في صالحنا وإن لم يصدقنا فلنستمر وحدنا، لسنا بهذا الضعف.

وقف عصام فجأة وهو يقول بصوت مرتفع ولكنه هادئ:

- مهلا مهلا، لِمَ تتحدثون عني بضمير الغائب؟! أنا هنا فالأفضل أن توجهوا لي الكلام أو أنصرف.

- عفوا سيد عصام ولكن نحن نستكمل حوارا بدأناه قبل قدومك، فلقد أخبرتهن أنك لن تثق بنا ببساطة وأن الأمر يحتاج منهن للصبر والتوضيح، وهذا ما سنحاول أن نقوم به الآن، فمن فضلك اجلس واسمعنا.

قالت ليلى هذه الكلمات ثم صمتت في انتظار أن يجلس عصام.

استجاب عصام وجلس في هدوء وعقد يديه حول صدره وانتظر أن تُكمل ليلى كلامها وبالفعل بدأت:

- نحن كما ترى مجموعة من الفتيات اتفقنا على انقاذ أنفسنا وغيرنا من الفتيات من هذا الجحيم القاتل الذي نعيش فيه، نحن الخمسة هاربات من حكم الاعدام المسمى رحلة الخصوبة، لا أحد يعرف أين نحن، حتى أسرنا. وهذا أفضل لهم لأنهم ليس بيدهم شيء لإنقاذنا. ولكن أنت يا أستاذ عصام وجماعتك تستطيعون مساعدتنا لنعود إلى حياتنا الطبيعية وأسرنا، فبعضنا غائبات عن أهلهن منذ سنوات والوضع كما ترى يسوء ولا أمل لنا إلا بمساعدتكم.

كان عصام يسمعها في دهشة، فحتى هذه اللحظة لم يكن يعلم أن هناك فتيات يهربن من رحلات الخصوبة وفكر بحسرة في أخته وأنه كان يستطيع انقاذها وتهريبها ولكن تلك الفكرة لم تأتهِ أبدًا، وها هن بضع فتيات استطعن قهر النظام والهروب منه! تبًا لغبائه.

- أتمنى أن تصدقنا وأن تمد لنا يد المساعدة.

انتبه من أفكاره على الصوت الخافت الممتلئ بالرجاء والذي خرج من فم الفتاة التي تجلس بجواره وهي الفتاة الصغيرة التي فتحت لهما الباب حين قدومهما. فنظر إليها بتأثر وكأنه ينظر إلى أخته سناء فهي كانت في نفس عمرها تقريبًا.

ولكن سؤال هبط على رأسه كالمطرقة" كيف عرفن أنه يتزعم مجموعة مقاومة، وكيف عرفن رقم هاتفه؟!

وأخرج سؤاله في كلمات بسيطة وهو ينظر إليهن وانتظر الإجابة..

أجابته ليلى:

- اسمح لنا بعدم الكشف عن الطريقة التي عرفناها بك وما يلي هذا من معلومات، فقط ثق بنا وساعدنا.

- عفوا ولكن كيف أثق بكن وأساعدكن وأنتن تخفين عني حقيقتكن وكيفية معرفتكن بي؟!

- هذه أمور لا أهمية لها صدقني، عليك أن تعرف فقط أننا نستطيع مساعدتك أيضا في ما تريده، نعم نحن فتيات، ولكن في جعبتنا الكثير.

ابتسم بسخرية وهو يقول:

- لو في جعبتكن الكثير ما كنتن لجئتن إليَ. عليكن أن تبذلن جهدًا أكبر من هذا لتقنعنني بما تريدن.

نظرن إليه الفتيات بغضب، وهممن بالكلام فأشارت لهن ليلى بالصمت وبدت زعامتها لهن وقوة شخصيتها بتلك الحركة، حيث استجبن جميعهن

ولم تنطق واحدة منهن بكلمة، فقامت ليلى ودارت حول الطاولة التي كانوا يجلسون عليها واتجهت إلى شاشة بيضاء كبيرة على جدار الغرفة وضغطت زر بجانبها فظهرت صورة اصابت عصام بصاعقة! فلقد كانت صورته هو وجماعته في أحد اجتماعاتهم.

هذه المرة لم يستطع أن يخفي توتره، فابتسمت ليلى بطرف شفتيها وهي تنظر له وفي عينيها نظرة زهو أو ربما انتصار!

وقف عصام بملامح غاضبة:

- ما معنى هذا؟! هل في مجموعتي خائن؟

- لا ليس بينكم خائن، ولكن نحن استطعنا بطريقتنا أن ندس كاميرا في مقر اجتماعكم واسمح لي لن استطيع اخبارك بالكيفية فهي سر. اظهرت لك الصورة لتتأكد من قوتنا وذكائنا وأننا لسنا مجموعة فتيات ساذجات، لدينا الكثير والذي ستعرفه بالتدريج، ولكن أولاً عليك أن تمد لنا يدك فنمد لك أيدينا.

فكر عصام في ما قالته، وتذكر الوجوه التي كانت تراقبه، وخطر في باله أن هاتهِ الفتيات لهن علاقة بالرجال الذين كانوا يراقبونه.

فجلس وعاد بظهره إلى الوراء قائلا بهدوء:

- أقبل مساعدتكن والتعاون معكن.

ابتسمت الفتيات وتنهدت ليلى في ارتياح.

كانت الدقائق التالية بعد موافقة عصام هي استعراض للموقف الراهن واستعدادات الدولة لبداية موسم جديد لرحلات الخصوبة. وبدأ كلا من عصام والفتيات في استعراض معلوماتهم بهذا الشأن، وبدى أن كلاهما على دراية كافية بكل شيء، تبقت فقط خطة النجاة وهي كانت أهم مسألة.

كان النقاش يدور بشكل جيد ومتوازن، وبدا لعصام ذكاء الفتيات وقوة شخصيتهن واصرارهن على تحقيق غايتهن والتي كانت تنحصر في الغاء رحلات الاعدام كما اسموها واسقاط هذا النظام الظالم، وهذا كان هدف عصام منذ كّون جماعته.

انتهى الاجتماع على اتفاق بأن يجتمع عصام بفريقه ويشرح لهم التغييرات الجديدة ويخبرهم بشأن ليلى وصديقاتها ليجتمع الجميع ويبدئون في وضع الخطة والتحرك.

خرج من مقر الاجتماع ومعه ليلى، حيث أنها ستعيده بسيارتها إلى قرب بيته كما أخذته، وفي أثناء انطلاقهما بالسيارة سألها:

- أين تعيشين؟

أجابته دون أن تلتفت إليه وعينيها على الطريق:

- لا أستطيع اخبارك.

تنهد عصام في ضيق:

- هذا الغموض الذي يحيط بكِ غير مريح، تعرفين كل شيء عني ولا أعرف شيئا عنكِ!

نظرت إليه بطرف عينيها وقالت متهكمة:

- تتحدث وكأنك تريد أن تتقدم للزواج مني.

ثم أردفت مداعبة:

- لا تفكر في هذا فأنت لا تناسبني.

لم يعجبه ما قالت مع ولم يبتسم لدعابتها ونظر أمامه ولم يعلق على كلامها، وهي لم تزد حرفا ولكن ظلت عيناها تلمع بابتسامة شقية.

وصلا إلى نفس الشارع الذي التقيا فيه، ففتح باب السيارة وخرج واغلقه بعنف وراءه ولم يلتفت إليها وسار في طريقه، وسمع صوت السيارة وهي ترحل مبتعدة، فالتفت والقى نظرة خاطفة نحوها ثم سار متجها إلى بيته ورأسه يدور بالأفكار..

اتصل بأحمد وطلب منه أن يتصل بالجميع لأنه يريدهم في مسألة هامة، وبرغم دهشة أحمد إلا أنه لم يعترض.

في اليوم التالي اجتمعوا، شرح لهم عصام المستجدات باختصار ورد على أسئلتهم والتي كان معظمها حول هؤلاء الفتيات وكانت اجاباته أغلبها لا أعرف!

وهذا ما أثار حيرة أفراد جماعته. فاقنعهم أن الفتيات خائفات لهذا يلزمن الحذر وأن معرفة تفاصيل عنهن لن يفيد في خطتهم، فالهدف هو النظام وهو الذي يجب أن يعرفوا كل شيء عنه لوضع خطة اسقاطه.

أومأوا برؤوسهم اقتناعا واعجبهم أن يعودوا للعمل ثانية والاستمرار في مخططهم بعد أن كانوا سيتوقفون شهرًا.

انتهى الاجتماع ورحل كل منهم إلى بيته ولكن ظل أحمد مع عصام يتحدثان، كان أحمد هو أقرب شخص إلى عصام وأكثرهم ثقة بالنسبة له.

لهذا اخبره عن الكاميرا واحتمال وقوعهم الآن تحت المراقبة، حتى أنه قال ساخرا:

- ابتسم ليشاهدوا غمازاتك الساحرة.

لكن هذا لم يعجب صديقه ونظر بغضب حوله وهو يقول:

- لا أحب هذا، ولا أشعر بالارتياح.

- لا يهم شعورك الآن، الوقت هو ما يهم وهو مفتاح كل شيء. نحتاجهم ويحتاجوننا لهذا فالتعاون بيننا هام جدًا ولكن الثقة بيننا ليست هامة. فلنكن معهن على حذر حتى نعرف عنهن كل شيء.

أومأ أحمد برأسه علامة الموافقة ثم سأله:

- ألا تخشى أن يكن قد سمعن كلامك الأخير هذا؟

- لا أخشاهن، وبالتأكيد يعلمن أنني لن أثق فيهن بسهولة ولا أظنهن يثقن بنا أيضًا. الثقة هي أخطر سلاح ممكن أن تمنحه للآخرين.

نهض أحمد وهو يربت على كتف صديقه علامة موافقته على كلامه ثم اتجه إلى باب الخروج وترك عصام وحيدًا، لأنهم اعتادوا على الخروج من مقر الاجتماع منفردين حتى لا يلفتوا الأنظار. بعد دقائق عاد عصام

إلى بيته فوجد أمه تجلس في انتظاره. هذا كان باديا على ملامحها القلقة والمترقبة. ظن أن تأخيره هو السبب ولكن كلمة واحدة خرجت من فمها وهي "والدك" جعلته يندفع إلى غرفة أبيه فوجده راقدًا على فراشه مغمض العينين، وبجواره طبيب يقوم بفحصه.

اعتدل الطبيب بعد انتهائه من الفحص ونظر إلى عصام وهو يحرك رأسه علامة الأسف ويقول له:

- لا أظنه سينجو. ولكن إن أحببتم نقله إلى المشفى فهذا خياركم. الأزمة هذه المرة شديدة وكما أخبرتكم المرة السابقة أنها ستكون القاضية.

نظر عصام بغضب وحنق إلى الطبيب، كيف يقول هذا أمام أبيه؟! أي طبيب هذا الذي لا يمنح الأمل لمرضاه! لماذا الجميع بتلك القسوة!

لم ينتظر الطبيب رده وحمل حقيبته وانصرف، ولمح عصام أهداب أبيه وهي تتحرك. فاقترب منه وهو لا يدر حقيقة مشاعره في تلك اللحظة! منذ فترة طويلة وهو لا يشعر بشيء سوى الغضب، ولكن هذا وقت الحزن والحب فهل تبقى في قلبه مكان لهما؟!

فتح الأب عينيه وكان عصام ينظر إليه مباشرة ورأي نظرة حانية تطل من عين الأب الذي رفع يديه ببطء يدعو ابنه للاقتراب أكثر.

تقدم عصام خطوة وجلس على حافة فراش أبيه وامسك بيديه، نعم وجد في تلك اللحظة ركنا في قلبه ممتلئا بالحب كان قد نسيه أو تناساه يوم اشتعل في قلبه الغضب والكراهية والتمرد..

حاول الأب أن يتحدث، يعلم أنه يحتضر وأن هذه الدقائق هي أثمن ما في الحياة:

-إنني ذاهب الآن إلى حيث لا أدري، لا أعرف كيف سيتقبلنا الله ونحن أبناء الظلم، ربما هذه أول مرة تسمعني فيها أذكر الله، حصرنا إيماننا بالكتب وفي قصص أسلافنا والتاريخ ولكن خطواتنا على هذه الأرض كانت تبتعد عنه وترفضه حتى تركنا هو لنعيش في جحيمنا الذي صنعناه بأيدينا.

ابتلع ريقه بصعوبة وأكمل:

- كثيرًا ما كنت أحاول أن أعذر نفسي وأقول لها "لم تفعلِ شيئا، لم تصنعِ هذا العالم ولا قوانينه" ولكن الحقيقة هي أنني شاركت في صنعه، عشت فيه ولم أعترض أو أرفض، سمعت وقرأت عن تاريخنا الأسود والضعفاء الذين سرنا فوقهم لنحيا ولم يكن هذا يشغلني أو يؤلمني، حتى جاء فيضان الظلم وأغرق بيتي.

ما حدث لأختك هو تتابع طبيعي لخطيئتنا الأولى. تركنا الفقراء يموتون لنحيا، والآن تموت بناتنا لنحيا، وأنت ومن مثلك يخاطرون بحياتهم لنحيا.

في تلك اللحظة التي يبتعد فيها قاربي عن شاطئ الحياة أنظر إلى كل ما سأخلفه ورائي وأسأل نفسي "ما المغزى؟!"

جدي ومن معه اعتصموا خلف جدران هذا العالم الجديد وتمسكوا بالحياة وتركوا الفقراء يموتون. ومرت السنون ومات جدي وجيله بالكامل، ثم بدأت أعدادنا في التناقص وشبح الانقراض طاردنا، ولنتمسك بالحياة مرة أخرى قدمنا فتياتنا قربانا وتركناهم يموتون لينجبوا لنا أطفالا سيموتون يوما ما أيضا..!

" ما المغزى؟!"

لا معنى للحياة دون الآخرة والحساب. هل تعي هذا يا عصام؟

العدالة التي تريدها وتخاطر الآن من أجلها لا قيمة لها وأنت لا تنظر إلى ما وراء هذه الحياة. أعلم أنني لم أحدثك عن الله كثيرًا، ولا أحد يتحدث عنه. ولكنه موجود ويرانا، وينتظر.

عندما كنت صغيرًا وجدت كتابا يتحدث عنه فذهبت إلى أبي وأنا أحمل الكتاب وكثير من الأسئلة.

أتذكر أن أبي ابتسم بحزن يومها وقال لي:

من فكر في نفسه فقط وترك خلفه كل هؤلاء البشر يموتون ليس في جوفه قلب يشعر أو يؤمن، بل أصناما عبدها لأنها منه ووليدة ذاته. رجال الدين الذين ظلوا معنا كانوا هم تجار الدين في العالم البائد. وجدوا هنا أن تجارتهم بائرة، فلو كان بداخلنا قبس من نور أو إيمان حقيقي ما كنا دهسنا في طريقنا إلى هنا كل هؤلاء. نزعوا عباءة الدين واظهروا حقيقتهم وعاشوا معنا بها. وهكذا بدأ الدين ينسحب من المشهد والإيمان يتوارى ومن تبقى بقلبهِ بقايا منه كان يواريها خشية السخرية أو اتهامه بالضعف أو استغلاله..

كان أبي مؤمنا، رافضًا لكل ما حوله. متمردا مثلك يا عصام ولكنه كان وحيدًا ومات وحيد..

لهذا لم أكن مثله، كنت أقرأ عن الله ولا أجده في داخلي، اسمع عنه من أبي ولا أفكر فيه كثيرًا. جادلت أبي مرة حين عنفني لعدم مبالاتي وقلت له:

- أول من قتل أخاه على الأرض كان مؤمنا. وجدي ومن معه كانوا مؤمنين كما يقول تاريخهم، ليس الكفر هو أصل الشرور.

لم أكن كافرا ولكنني كنت لا مباليا، وكلاهما سواء.

كنت أخشى الوحدة والنبذ، كنت أخشى أن أموت وحيدًا مثل أبي.

هل تعرف كيف مات؟

تحشرج صوته، وبدى عليه أنه يجاهد ليتنفس ولكنه أكمل:

- هجرته أمي وأخذتني معها. لم يكونا على وفاق أبدًا، كان يصلي ويقرأ كثيرًا ويرفض كل ما يشاهده حوله من فساد وظلم، وهي لم تكن مثله. لا أعرف لِمَ تزوجا بالأساس ولكنه لم يكن ليجد من تماثله فهو لا ينتمى إلى هذا العالم القاسي. جاء إليه مع أبيه وهو لا يزال غلام فلم يكن له خيار. حتى وإن كان له الخيار فمن سيختار الموت جوعًا؟!

حينما كبر حاول إصلاح من حوله فاتهموه بالجنون. نعم مات وحيدًا في مصح عقلي. خفت أن أكون مثله فسرت مع القطيع، ولكن كان بصدري

دائما شيئا يلكزني كلما ابتعدت عن ما علمه لي أبي وظلت تلك اللكزات تؤلمني، حتى أرهقت ذلك القلب الذي يحتضر الآن..

أنفاس الأب بدأت تتلاحق وصدره يعلو ويهبط بقوة فتجاهل كل هذا وركز بصره في عين ولده وهو يقول بصوت مبحوح:

- لا تكن مثلي يا عصام، بل كن مثل أبي، لا تنسَ الله حتى لا ينساك. لا تنتمي إلى هذا العالم. كن دائما غريبا وحيدًا حتى لا تخسر كل شيء. استمر في رفضك لكل ظلم تراه حولك ولكن لا تجعل هذا الرفض أعمى فتصبح مثلهم دون أن تدري. لا...

لم ينطق تلك الجملة الأخيرة ولم يعرف عصام ماذا كانت فلقد أسلم والده الروح وأغمض عينيه ورحل..

للحظات توقف الزمن بعصام وتوقف احساسه بأي شيء. حتى قدرته على التنفس كادت أن تتوقف.

ظل ممسكا بيد أبيه حتى بعد دخول أمه واكتشافها موت زوجها وبكاؤها. موت الأب وكلماته كان كإشعال نار في كومة حطب؛ فلم يترك في داخله شيء هادئ أو مستقر..

لم يحدد شعوره حيال موته ولكنه كان شعورًا ثقيلا ومن ثقله لم يستطع وزنه داخله. أو فهمه!

كانت الأيام التالية هي الطقوس المعتادة من جنازة إلى عزاء.

من ضجيج وحركة وزوار معزيين إلى هدوء تام وصمت صاخب رسم ظلاله على الجدران. لم يعد في البيت سوى عصام وأمه وتلال من الحزن..

وراودته فكرة التوقف عن حياتهِ السرية خوفًا على أمه ووحدتها بعده إن حدث له شيء ولكن هذه النار التي تتأجج داخله ركلت الفكرة بعنف.

بعد أيام العزاء والتي لم يتركه فيها أحمد أو أصدقاؤه قرروا اللقاء ثانية لوضع الخطة لبدء عمليتهم الكبرى كما أسموها.

وكان اللقاء هذه المرة يضم الجميع، جماعة عصام وجماعة ليلى..

كان الاجتماع في المقر السري لليلى وجماعتها وبدأ النقاش..

- هذا أول اجتماع لنا وهو الأهم، حيث علينا وضع خطة التحرك فموعد رحلة الخصوبة قد اقترب وعلينا منعها بأي شكل ثم اسقاط هذا النظام كما نريد.

هذا ما قاله عصام وهو ينقل بصره بين الجميع. وانتظر أي تعليق من احدهم. وكان التعليق الأول من ليلى:

- هل لديك خطة معينة أم تسمح لنا بعرض خطتنا؟

تطلع إليها أصدقاء عصام بدهشة وكذلك فعل هو! فلم يتوقعوا أن لديهن خطة بالفعل، فلا زالوا يرونهن مجرد فتيات صغيرات يطلبن مساعدتهم!

كان لدى عصام خطة غير مكتملة، وهي إثارة الشعب على النظام وتوعيته بفساده وخطورته وأهمية التخلص منه، هذه هي الفكرة العامة، فبدون الشعب ومساندته لن يستطيعوا فعل شيء فليس لهم جيشا أو قوة تمكنهم من اسقاط النظام وحدهم. ولكن كيف يتم تحقيق ذلك؟ هذا ما كان يحتاج إلى نقاش واقتراحات وتفاصيل، وهذا ما قاله لها بوضوح فعادت ليلى بظهرها إلى الوراء في مقعدها وقالت بهدوء:

- إذًا ليس لديكم خطة!

ضايقه عبارتها فلقد شعر أنها ساخرة وإن لم يبدو هذا على ملامحها فكتم ضيقه وقال:

- لا، ولهذا اجتمعنا اليوم.

مالت ليلى للأمام وقالت بجدية:

- حسنًا فلنخبركم نحن بخطتنا.

نظر إليها الجميع في اهتمام فاستطردت:

- رحلة الخصوبة هي ساعة الصفر لنا. نتفق معكم في أنه لابد لنا من مساندة شعبية لنصل إلى هدفنا، لهذا نحتاج لتحريكهم وإثارتهم لينضموا إلينا. الغضب هو شعلة النار التي ستنير لنا الطريق وليس هناك أفضل من بناتهم ليكونوا حطب هذه النار ووقودها.

نظر إليها الجميع بتركيز والدهشة لا زالت تجوب في ملامحهم ولكن لم يقاطعها أحد وخاصة صديقاتها اللاتي بدى عليهن الاتفاق مع كل ما تقوله ليلى ومعرفتهن المسبقة به.

- خطتنا باختصار هي اختطاف الفتيات أثناء رحلتهن. سنضرب بتلك الخطوة عصفورين. أولاً انقاذ الفتيات وثانيا اشعال الغضب في نفوس أهلهن واحراج النظام ومن ثم بدء الثورة.

كانت الفكرة رائعة حقًا ولكن تنفيذها شبه مستحيل! كيف يتسنى لهم هزيمة الحراس المرافقين للفتيات وهم بمثابة جيش صغير وعددهم يفوقهم بمراحل!

وقبل أن يقول أحدهم هذا سارعت ليلى وقالت:

- اعددنا كل شيء نحتاج فقط لمساعدتكم في التنفيذ، ولهذا لجأنا إليكم، إن وافقتم على الفكرة نعرض عليكم التفاصيل.

وصمتت ليلى وانتظرت الرد.

فقال أحمد:

- لنعرف التفاصيل أولًا.

نظرت ليلى إلى عصام وحينما وجدته صامتا وينظر إليها بتركيز قالت:

- حسنًا إليكم التفاصيل..

سنتواصل مع بعض الفتيات اللائي تم اختيارهن واعلامهن بالرحلة. بمساعدتهن ستكون لنا يد داخل تلك الرحلة. غاز منوم سنزود به الفتيات ليطلقوه في الوقت الذي نحدده لهم وبعد أن ينام الجميع يأتي دورنا نحن

في اخفاء الفتيات فلا يجدهن الحراس عند استيقاظهم وتبدأ القلاقل والثورة.

تخيلوا رد فعل الناس عندما يتم الإعلان عن موت بناتهم !

ولمعت في عينيها نظرة جذلة وصمتت انتظارا لتعليقاتهم على الخطة.

لم يستوعب عصام العبارة الأخيرة!

- مهلا! هل قلتِ موت بناتهم؟!

- نعم، الاختطاف وحده لن يشعل غضب الناس بقدر موتهن.

- أنا لا أفهم هذا! قلتِ في البداية خطفهن ثم الآن تقولين قتلهن! هل أنتِ مجنونة؟!

- لا أسمح لك بإهانتي، فكر في كل كلمة قبل قولها.

- أنا بالفعل أفكر لهذا لم استوعب ما تقولينه فهو متناقض ومجنون. إن وافقتك على الخطف فكيف يخطر في بالك أن أوافق على القتل؟!

- لا يخطر هذا في بالي بالطبع، يحتاج الأمر فقط للسؤال بأدب فتجد الإجابة ببساطة.

اغضبه كلامها فنهض بشكل مفاجئ وهو يسلط عينيه الغاضبة عليها وضم قبضته وكأنه يمنع نفسه من ضربها فامسك احمد بيده يجذبه للجلوس وهو يقول تخفيفا للموقف:

- وضحي لنا قصدك بموت الفتيات هذا ما نريد معرفته.

جلس عصام ولكن علامات الغضب على وجهة لم تتغير.

تنهدت ليلى واعتدلت في جلستها وقالت وهي تنظر لأحمد والبقية متجاهلة عصام تماما:

- هذه خدعة سنقوم بها، سنوهم الناس أن بناتهم تم قتلهن بعد اختطافهن بعدة أيام. سيكون هذا تفجيرًا للموقف وإشعالا لغضب هائل نحو النظام. فالاختطاف وحده يمنحهم الأمل. والأمل لا يشعل الغضب الذي نحتاجه للثورة. فرغبتهم في عودة بناتهم ستجعلهم يصبرون ويعيشون على أمل عودتهم لأن بالتأكيد النظام سيمنحهم هذا الأمل ويعمل جاهدًا على عودة الفتيات ولن يجد الأهل سبيلا آخر غير الانتظار والصبر. وهذا مالا نريده.

كان كلامها مقنعًا ومرتبًا وذكيًا فلم يجد أحدهم ما يعترض به عليه، ولانت ملامح عصام وهو يفكر في ما قالته ويجده منطقيًا.

ولكن يتبقى التنفيذ وصعوبته..

سأل رؤوف وهو أحد أعضاء فريق عصام:

- أين سنخبئ الفتيات؟ أن نقوم بإخفاء أكثر من مائتي بنت لهو أمر شبه مستحيل.

أجابته ليلى:

- لا ليس مستحيلًا فلدينا المكان بالفعل.

نظر إليها فريق عصام كله في دهشة! فأردفت هي:

-أخبرتكم أننا قد اعددنا كل شيء نحتاج إليكم فقط في التنفيذ.

كان الأمر واضحًا، هذه الفتاة تسحب بساط الزعامة من عصام وتقرر أنها وفريقها من سيقودون عصام وفريقه. الفتيات سيتزعمن الرجال ويخططن ويأمرن وعلى الرجال التنفيذ فقط! وهذا لم يكن مُرضيًا لهم بالتأكيد وخاصة عصام الذي شعر بالغيظ ولكنه جال بنظره في أفراد جماعته ليعرف رأيهم ومدى اتفاقهم أو رفضهم. ولكن لم يتكلم أحدا منهم واكتفوا بالنظر إليه وانتظار قراره.

فأعاد عصام نظرته إلى ليلى وقال بهدوء:

- لا نحب أن نسير كالقطيع، عليكن بإعلامنا بكل شيء وبكافة التفاصيل وحتى هذا المكان الذي تتحدثين عنه يجب أن نعرفه، وأهم شيء نريد معرفته هو "من أنتن؟ "

ابتسمت ليلى ونظرت لصديقاتها بمرح:

- نحن فتيات كما ترى، فتيات مقاومات للظلم. وبالنسبة للمعلومات التي تريدها للمهمة فسنخبركم بها خطوة خطوة وهذا من دواعي السرية وتحسبًا لأي خلل أو ثغرة.

- ليس بيننا خائن فاطمئني واخبرينا.

- عفوا سيد عصام لا أستطيع. سنخبركم بكل خطوة قبل تنفيذها بقليل فقط. لو كنت مكاني لفعلت هذا فهو من الحيطة والحذر وهما مفتاح نجاح أي خطة.

الأمر أصبح واضحًا هكذا؛ ليلى أصبحت الزعيمة وعلى الجميع السير ورائها بما فيهم عصام. وهذا لم يعجبه، لم يعجبه أبدًا..

نهض دون كلمة وانصرف دون سلام، حتى أنه لم يلق بالسلام على أصدقاءه وتركهم يقررون وحدهم الاستمرار أو الانصراف وراءه. ولكن قبل أن يصل إلى الباب سمع ليلى تهتف:

- لا تهرب. ليست قضيتك الخاصة لتتملكك نزعة الذكورية وترفض أن تقودك امرأة.

كان هذا أقصى ما يحتمله. فالتفت بغضب وعينيه تشتعل بنظرة نارية نحو ليلى..

- من أنتِ لتخاطبيني بهذه اللهجة؟! لا أسير وراء مالا أفهمه ولا أعرفه. وأنا لا أفهمك ولا أعرفك ولا أريد أن أكون في جيشك الغامض هذا. وأظن أن هذا القرار لي أليس كذلك؟

قالت بهدوء شديد:

- نعم هو لك فيما يخصك وحدك.

ثم التفتت إلى باقي أفراد الفريق وأكملت:

- ولهم فيما يخصهم. وأتمنى أن يكون لهم رأيا مخالفا لرأيك وأكثر حكمة.

تحول الأمر لحركة انقلابية للاستيلاء على حكم المجموعة من قبضة عصام! وكان هذا ساخرًا جدًا حتى أن عصام وجد نفسه يضحك بصوت عالٍ لم يستطع كتمه. أن يشاهد بعينيه محاولة الانقلاب عليه وسلب مجموعته التي أنشأها للانقلاب على النظام الحاكم لهو موقف عبثي لا معقول بشكل جنوني! ولهذا لم يستطع التوقف عن الضحك ونظر إليه الجميع في صمت.

ولم يقطع هذا المشهد سوى أحمد الذي نهض بهدوء وهو يخاطب ليلى ويقول:

- زعيم جماعتنا هو عصام، إن أردتِ منّا أن نساعدك فعليكِ بموافقته هو أولًا.

ولم يعطها فرصة للرد وأشار لأصدقائه بالنهوض ومتابعته. فنهضوا ووقفوا جميعهم خلف عصام الذي اعجبه تصرفهم كثيرًا فنظر إليهم بامتنان ووضع يده على كتف أحمد شاكرًا له تصرفه الرائع.

قالت ليلى بهدوء وبساطة:

- حسنًا أوضحتم وجهة نظركم، أحتاج لبعض الوقت مع صديقاتي لنناقش ما تطلبونه.

كانت كلمات ليلى اعلانا بانتهاء الاجتماع وتأجيله فخرجوا في صمت وهدوء دون كلمة. وتركوا ليلى وجماعتها وحدهن..

الفصل الثالث

قطعة الثلج هي بقعة ماء رحل عنها الدفء. هي الآن أجمل، ولكنها أكثر خوفًا من ضوء الشمس..

كانت اجراءات إعداد رحلة الخصوبة تتم على قدم وساق، تم ارسال خطابات الاستدعاء. لهذا كان الحزن يخيم على تلك البيوت التي تم اختيار بناتهم للرحلة. في نفس الوقت كان النظام الحاكم مشغولًا ببعض المشكلات الاقتصادية التي تطفو على السطح، فالإنتاج لا يتناسب مع الاستهلاك وهذا ما يسبب عجزًا مستمرًا في الموازنة العامة ويضطرون للقيام ببعض التحايل وفرض مزيد من الضرائب لتسديد العجز. ولكن الوقت لم يكن ملائما أبدًا لمثل هذا الإجراء فهم يعلمون غضب الناس من رحلات الخصوبة وبالتأكيد لا يريدون إشعال مزيد من الغضب.

جلس الرئيس مع مجلس الوزراء يناقش تلك المسائل العالقة. كان ذو شخصية مهيبة، لم يره أحد مبتسمًا إلا في اللقاءات الرسمية، أما مع

وزراءه ومساعديه وحتى أسرته لم يكن يبتسم! وصل إلى الحكم عن طريق انتخابات سريعة، فلا أحد يهتم بمن يحكم طالما أنه يمنحهم تلك الوعود البراقة التي اعتاد عليها الطامعون في الحكم. يمنحون الناس الوعود، والناس يمنحونهم صك الرئاسة وينتهي الأمر. ويتكرر كل مرة. فلا الرؤساء يوفون بوعودهم ولا الشعوب تتوقف عن تصديق تلك الوعود أو منح الصك. لعبة مستمرة بسخافة..

- علينا تجاوز تلك الأزمة، لا بديل عن زيادة الإنتاج وحث الناس على العمل.

هكذا قال الرئيس وانتظر تعقيبهم:

وزير الاقتصاد: حاولنا بكل الوسائل. قمنا بعمل حملات توعية بأهمية العمل واتقانه، وفرنا الكثير من فرص العمل. لكن لازال الوضع كما هو. لا أحد يعمل بكد أو يشعر بانتماء حقيقي لهذه الدولة.

نظر إليه الرئيس بغضب:

- ماذا تقصد بهذا؟!

رد الوزير بتلعثم:

- أقصد أننا نحتاج إلى زرع بذرة الانتماء داخلهم. فهو المحرك الرئيسي لأي شعب ناهض.

جاء صوت رئيس الوزراء قويا:

- نحتاج إلى حل سريع وهو فرض عقوبات مشددة على المتهاونون في العمل. وحرمان المتقاعسون عن أي مزايا. فلنربط الرواتب بالإنتاج. حينها سيختلف الأمر وسيقوم الجميع بما هو مطلوب منهم.

أومأ الرئيس برأسه علامة الموافقة على الاقتراح وقال:

- أوافق على هذا، فليتم تعميمه وابلاغ كل المؤسسات به. وبالنسبة للمؤسسات الخدمية فليكن عليها رقابة مشددة ومن لا يعمل يتم فصله أو الخصم من راتبه. لابد من بعض الشدة في المرحلة القادمة لإنقاذ البلد مما هي فيه.

انتهى الاجتماع وخرج الرئيس ليستريح في غرفته. هذه الأيام يشعر ببعض الآلام في صدره. لم يتجاوز الستين بعد ولا زال بداخل رأسه أشياء كثيرة يريد فعلها، وطموح لا يتوقف عن النمو، الموت أبعد ما يفكر فيه الآن. لكن المشكلات حوله تتزايد، ولن يستسلم لها..

تمدد في فراشه بعد أن نزع معطفه وأغلق عينيه بحثًا عن بعض الراحة ولكنه سمع صوت طرق خفيف على الباب ففتح عينيه وقال بضيق:

- من؟!

- أنا يا أبي.

كان صوت ابنته فتنهد وسمح لها بالدخول.

فتحت الباب ودخلت وأغلقته ورائها وهي تنظر إليه مبتسمة.

- ما الأمر؟! هذه أول مرة تزورينني فيها في غرفتي منذ فترة طويلة جدًا.

- نعم أعلم. سألت عنك فأخبروني أنك في اجتماع فانتظرت، ثم سألت ثانية قالوا أنك في غرفتك. فلم أستطع الانتظار أكثر من هذا.

- وما هو هذا الأمر الخطير الذي يجعلك لا تستطيعين الانتظار؟!

- أريد زيارة أمي.

- لم يحن ميعاد زيارتها بعد.

- نعم ولكنني أرغب في زيارتها غدًا، لا أفهم سبب تقييدك لزياراتي لها! مرة كل أسبوعين قليل جدًا.

- وما فائدة زيارتك لها وهي لا تتذكرك؟! كل مرة تعودين من زيارتها تكونين في حالة بائسة وناقمة وغاضبة وتتفوهين بكلمات غبية. الأفضل لكِ عدم زيارتها.

ردت بغضب:

- لا تلومني على مشاعري، لو كان لك قلبا لشعرت مثلي بالحزن.

نهض عن فراشه في غضب ووقف أمامها وقال وهو ينظر في عينيها مباشرة:

- ليلى.. لا تتجاوزي حدودك معي. أغفر لكِ لأنكِ ابنتي. لكن لا تظنين أنني سأغفر دائما.

كانت تشتعل غضبًا لكنها لم تتفوه بكلمة واستدارت وفتحت الباب وخرجت منه وأغلقته ورائها بعنف.

عاد هو إلى فراشه وجلس على حافته وقد عاودته آلام صدره ومعها شعور بالضيق والغضب.

خرجت ليلى من غرفة أبيها واستمرت في السير حتى خرجت من البيت إلى الحديقة الفسيحة التي تحيط به. كانت تحتاج وقتًا لتهدأ. يجب أن تذهب

إلى المشفى، وإن لم يوافق أبيها فلتذهب بدون إذنه على الرغم أن هذا يحتاج إلى التسلل وخطة صغيرة ولهذا عليها أن تهدأ لتفكر بتركيز..

أتمت رسم الخطة في رأسها فصعدت إلى غرفتها، ابدلت ملابسها وحملت حقيبتها وخرجت بهدوء.

تبعها حارسها الشخصي حين لمحها خارجة من باب القصر، لم تلتفت إليه تعلم بأنه لابد أن يتبعها كالعادة وعليها أن تنتظر الفرصة المناسبة للهرب منه كالعادة أيضًا.

استقلت سيارتها وجلس الحارس بجوارها. هي تحب أن تقود بنفسها لهذا رفضت بشدة أن يكون لها سائق خاص. تسبب هذا يومها في شجار بينها وبين أبيها ولكنها انتصرت في تلك المعركة. انتصارا جزئيا لأن الحارس سيظل برفقتها وهي تقود ولم تستطع رفض الحارس أيضًا فأبيها لن يوافق على هذا أبدًا.

بعد قليل أوقفت السيارة أمام مدخل احدى العمارات السكنية التي تعيش فيها احدى صديقاتها، طلبت من الحارس البقاء في السيارة حتى تصعد وتعطي لصديقتها شيئا ثم تعود سريعا. اعترض الحارس لأن الأوامر تنص على ملازمتها في كل مكان تذهب إليه ولكنها أمرته بكلمات حاسمة

أن ينتظرها لمدة خمس دقائق فقط فانصاع لها مرغما. دلفت إلى العمارة وصعدت درجها ثم وقفت في الطابق الأول ونزعت حقيبتها من على ظهرها وأخرجت منها تي شيرتا وبنطالا وابدلت ملابسها سريعا ووضعت قبعة رياضية على رأسها وادخلت في الحقيبة ملابسها التي كانت ترتديها و أخرجت منها كيسًا بلاستيكيا كبيرًا كان مطويا بعناية داخلها ووضعت فيه الحقيبة بمحتوياتها وحملته في يدها وهبطت الدرج ثانية وخرجت من البوابة بعد ثلاث دقائق فقط من صعودها فلم يعرفها الحارس أو يشك فيها للسرعة التي فعلت بها هذا.

أصبحت وحدها فعرجت إلى شارع جانبي كانت تقف فيه سيارة صغيرة أخرجت مفتاحها من جيبها واستقلتها سريعا وانطلقت..

توجهت رأسا إلى المشفى، صعدت إلى غرفة أمها لتلقي عليها نظرة قبل أن تتجه إلى وجهتها الحقيقية التي أرادت القدوم إلى المشفى من أجلها.

كانت أمها تجلس كعادتها على مقعدها الأثير وتنظر إلى الطريق من خلال نافذتها الزجاجية المغلقة.

اقتربت منها ليلى وركعت أمامها وهي تنظر إليها بحنان.

ولكن الأم ظلت تنظر إلى الطريق وكأنها لا تشعر بوجودها! ظلت ليلى تنظر إلى أمها دقيقتين، ثم انحنت على يدها وقبلتها فتحركت يد الأم الثانية ومسحت على شعرها وهي لا تزال شاردة وعينيها تنظر إلى البعيد، ولكن تلك الحركة الدافئة منها أراقت دمعة حنين من عين ليلى لأنها ذكرتها بتلك الأوقات الجميلة التي كانت تقضيها أمها معها وتمسح فيها على شعرها وتداعبها وتمازحها وتمنح وجهها الصغير ابتسامتها العذبة. مرت ثلاثة أعوام وأمها على تلك الحالة.

ثلاثة أعوام من الشرود والرحيل خارج الزمن إلى عالم لا أحد يعلم أسراره غيرها، وحدها أمها هي من يعلم أين تكون في تلك الفترة التي تركت فيها عالمها وسبحت بأفكارها بعيدًا..

نفضت ليلى الذكريات الحزينة التي بدأت في الزحف نحو عقلها وحاولت أسره ونهضت، فلا وقت للحزن. الماراثون قد بدأ وعليها الركض بقوة وسرعة.

قبلت رأس أمها ولامستها برأسها للحظة ثم تنهدت واتجهت إلى باب الغرفة وخرجت منه بهدوء وأغلقته وراءها. نظرت حولها لتتأكد من أنه لا أحد يتبعها ثم اتجهت رأسا إلى من تريد. حيث يوجد أستاذها الكبير،

هكذا تسميه منذ أن التقته بالصدفة أول مرة في رواق المشفى بصحبة الممرض المسؤول عنه ودار بينهما حوارا غريبا. منذ هذا اليوم وهي تتبعه وتسمع له وتستشيره في الكثير. يبدو كلامه معظم الوقت غامضًا ولكنها تفهمه، لا تعرف كيف أصبح بينهما هذا النوع من التواصل والارسال والاستقبال الذي لا يفهمه الباقون وهي لا تحاول أن تعرف، يكفيها أنها تفهمه ويكفيها أنه يمنحها ما تريده من توجيه.

أول لقاء بينهما بدأ بنظرته المتفحصة لها وهي تسير في رواق المشفى بعد زيارتها لأمها. استوقفتها نظراته إليها! حاول ممرضه حثه على السير ولكنه أبىَ، وظل على حاله من تفحصها. لم تعجبها نظرته وكانت تشعر بالغضب بعد رؤيتها لأمها، حالها دائما بعد كل زيارة. منذ شرود أمها ومرضها وهي في حالة غضب لا تتوقف، حزن يرتدي قناع الغضب ويخيف كل شيء حولها، حتى صديقاتها أصبحن يخشينها..

صرخت في وجهه:

- ما بك؟! علام تنظر هكذا؟!

لم يجب وظلت نظراته كما هي، فأشاحت بيدها وتحركت لتسير في طريقها فوضع يده على كتفها وهو يقول بصوت عميق وهادئ:

- انتظري، لم أنتهي.

حدقت فيه بدهشة وغضب:

-لم تنتهي من ماذا؟! من النظر إلي! هل أنت مجنون؟!

ثم أردفت بتهكم:

- طبعا مجنون وإلا ماكنت نزيلا هنا.

سمعت صوت الممرض:

- هو بالفعل نزيل هنا ولكنه ليس مجنونا، لا يصح أن تقولي عنهم مجانين، هم فقط مرضى.

نظرت باستخفاف إليه، ثم التفتت لتمضي في طريقها ففوجئت به للمرة الثانية يضع يديه على كتفها فلم تتمالك نفسها وقامت بدفعه في صدره، ثم وجهت حديثها إلى ممرضه وقالت بعصبية:

- لماذا لا تأخذه وتنصرف؟!

- عفوًا ولكنك لو تعرفينه جيدًا لعلمتِ أن التعامل معه يجب أن يكون بهدوء وحكمة.

لم تفهم هذا ولا يهمها أن تفهمه ولكنها التفتت إليه عندما سمعته يقول لها بصوته العميق:

- سأنتظرك في غرفتي، لديَ ما تريدينه. لا تتأخري.

ثم سار في طريقة ومعه الممرض المسؤول عنه ووقفت هي تنظر إليه في دهشة..!

شغلها التفكير فيه طوال طريق عودتها إلى بيتها، حتى أنها في اليوم التالي قررت أن تلبي دعوته. وبالفعل ذهبت في اليوم التالي وبحثت عنه. لم تكن تعرف اسمه أو رقم غرفته، ولكنها قامت بوصفه لموظفة الاستقبال:

- رجل مسن، أبيض البشرة في الثمانين من العمر تقريبا، ذقنه بيضاء وشعره خفيف جدا، طويل بانحناءة بسيطة. له نظرة ثاقبة.

ولكن للأسف لم تتعرف عليه الموظفة فاضطرت ليلى إلى البحث بنفسها عنه. سارت في الرواق الذي قابلته فيه بالأمس، واتجهت نحو الممر الذي رأته يعبر إليه مع ممرضه. كان الممر يحوي عدة غرف. بدأت بالنقر عليها واحدا واحدا حتى وجدته..

كان يجلس على سريره في وضع القرفصاء، أشبه بتمثال بوذا! تعجبت من جلسته تلك، ولكنها اقتربت في هدوء ووقفت أمامه وألقت التحية.

رفع رأسه إليها ببطء، وأشار لها بيده أن تجلس وكأنه كان ينتظرها..

جلست على مقعد قريب وعيناها معلقة به في انتظار ما سيقوله. وبالفعل بدأ هو الكلام بصوته العميق:

- أعرف والدتك، وأنتِ تشبهينها كثيرًا، كانت تأتي لتزورني ثم انقطعت زياراتها منذ فترة طويلة. حين رأيتك عرفتك. وعرفت ذلك الوهج الذي في عينيكِ. هو نفس الوهج وذات النظرة. ميراث رائع تحملانه داخلكما وتتوارثانه بشكل جيد.

كانت الدهشة التي ملأت ملامح ليلى كافية لتجعله يصمت انتظارا لكلماتها المعقبة على كلامه. يعلم أنه ألقى إليها بطن كامل من علامات التعجب وعليه أن يساعدها في حمله.

- كيف عرفت أمي؟! ولماذا كانت تزورك هنا؟! وعن أي وهج تتحدث؟!!

- كانت تأتي لزيارة أمها المريضة جدًا. يوم وفاتها سمع صراخها الجميع. جاءت والدتك إليها، لا أعرف لِمَ اتصلوا بها! ما كان يجب أن تراها في

تلك الحالة. آلام أحبائنا لا تؤلمنا، إنها تفعل ما هو أكثر من ذلك، فهي تصنع شرخًا في الروح، شرخًا يظل مفتوحًا، كأخدود من نار، لا ينطفئ أبدا.

لم تكن تعرف ليلى أن جدتها كانت نزيلة هذه المشفى النفسية! هل حقا كانت كذلك أم أن هذا الرجل يتلاعب بها؟!

أخرجها صوته من أفكارها:

- تمتلئين بالغضب، كانت تقودك تلك النظرة الحزينة الغاضبة ذاتها. أين والدتك؟

فكرت ليلى "هل أخبره؟! لا.. فهذا الرجل مريب"

- هل كنت صديق لجدتي أم لأمي؟

- لست صديقًا لأحد.

قالت هازئة:

- عدوٌ للجميع إذًا.

سلط نظرته عليها لبرهة:

- الجميع أعداء، هذه الأرض تمتلئ بالأعداء فقط.

- كلامك صحيح. لا شيء جيد على هذه الأرض.

تذكرت فجأة عبارته التي قالها لها في لقائهما السابق (لديَ ما تريدين)!

- لماذا طلبت مني أن آتي إليك؟ ماذا لديك لي؟

- النهاية.

نظرت إليه بدهشة:

- نهاية ماذا؟!

- نهاية ألمك.

- لا أفهم!

- أنتِ تتألمين أليس كذلك؟

- لا شأن لك بي. لا أعرفك، ومعرفتك بجدتي وأمي لا يمنحانك معرفة بي أو قرب ما.

أومأ برأسه ببطء ولم يتكلم..

استفزها صمته، فنهضت بعصبية وهي تقول:

- يبدو أنني أضعت وقتي هنا.

- كل ضائع سنجده.

- ما معنى هذا؟!

- عندما يبدأ بحثك ستجدين ما ضاع منكِ.

- يبدو أنك مجنون فعلا. لماذا نسيت هذا! ما كان يجب أن آتي إلى هنا.

- لم يكن يجب أن يأتي أحد إلى هنا.

لم تفهم! وكان مفترض بها أن تنصرف. ولكن قدميها ثبتتا في الأرض. هذه الحيرة التي بداخلها، وهذا الغموض الذي يغلف كلمات هذا الرجل ومفاجأة معرفته بجدتها وأمها، كل هذا جعلها لا تستطيع التحرك، فعادت لتجلس..

لم تنتهِ هذه الزيارة إلا بعد ساعة ونصف أخرى، ولم تكن هذه هي زيارتها الأخيرة له. تعاقبت الزيارات فهذا الرجل كان كالمغناطيس بالنسبة لها. وبدأت تتعلم منه ومن عالمه الغامض الكثير..

الحديث معه كبوابة تعبر منها إلى غرفة الأسرار. وضع على عينيها نظارة ثلاثية الأبعاد ووضعها داخل صندوقه الأسود ورأت كل شيء بوضوح. وعرفت ليلى ما الذي يجب عليها أن تفعله.

ولكن كلما تحيرت في قرار ما، كان عليها أن تعود إليه. كما فعلت الآن. رفض عصام وجماعته السير تحت قيادتها يجب أن تسأل فيه أستاذها حتى لا تتعثر الخطة ويتوقف كل شيء.

وصلت إلى غرفته وطرقتها مرتين كما تفعل دائما ثم فتحت الباب ودخلت.

كان نائما، فلم تشأ إيقاظه وجلست على مقعدها الأثير بجوار فراشه. ولكنه شعر بها والتفت إليها مرحبا.

لم يبتسم لها، لم تره أبدًا مبتسما، ولا متجهما! ملامحة منبسطة بلا أي تعبير ولكنها مريحة.

- كيف حالك؟

- الحمد لله

لا تسمع تلك العبارة كثيرًا خارج تلك الغرفة، ولكنها تراها دافئة، فكررتها وراءه:

- الحمد لله. عصام لا يعجبه أن يسير مغمض العينين، وفريقه يتبعه. ما رأيك؟

- هذا جيد.

- كيف؟!

- في لحظة ما ستقودك عيناه. حين يغلق الجميع أعينهم ستحتاجين لمن يرى لكِ الطريق.

فكرت ليلى في كلماته قليلا. هي معتادة منه على تلك الإجابات المختزلة.

- حسنا، ماذا لو لم يقبل؟

- كوني له بابًا إلى الحقيقة وسيقبل.

- كل الحقيقة؟

أومأ لها برأسه علامة الإيجاب. فنهضت بهدوء وهي تبتسم له وتحييه، ثم انصرفت.

كانت تعلم أن أباها سيغضب حين يعلم بهروبها من حارسها، لهذا كان يجب أن تتصل بعصام ليتقابلا قبل أن تستقبل ثورة أبيها وغضبه.

تهاتفا وطلبت لقاءه فورًا فوافق على مضض. يشعر بشيء غير مريح في تلك الفتاة وأن وراءها أمر عظيم. ولكن في نفس الوقت يشعر بأنه بشكل ما أصبح طريقهما واحدًا وعليه أن يتأقلم مع تلك الحقيقة.

لقاؤهما تم كما طلبت ليلى في مقرها السري. كان خاليا هذه المرة إلا منهما. سبقها هو في الوصول إليه وانتظرها في سيارته. وحينما وصلت ترجل من السيارة وسار نحوها.

أوقفت سيارتها بالقرب من البوابة وخرجت منها وأشارت إليه دون تحية أن يتبعها. لم تعجبه تلك الحركة ولكنه تبعها في صمت وضيق مكتوم. وصلا إلى باب الشقة فأخرجت مفتاحها وفتحت الباب ودخلا.

جلست في مكانها المعتاد وكرسيها المفضل على الطاولة. وجلس عصام.

- أظن أنني مدينة لك بتوضيح بعض الأمور، جئت اليوم للرد على أسئلتك. فتفضل.

- من أنتِ؟

ابتسمت ليلى وهي تقول:

- هل هذا هو سؤالك الأول الخطير؟! حسنًا. أنا بروتس.

- بروتس!!

- نعم، ربيب قيصر وأثيره. ألا تعرف ماذا قال قيصر لبروتس حين اشترك في قتله ومنحه الطعنة الأخيرة "حتى أنت يا بروتس! إذًا فليموت قيصر"

قالت هذا ثم ابتسمت في مرح وأردفت:

- أنا بروتس.

- لا تراوغيني، تعلمين ما أقصده بسؤالي. من أنتِ وكيف حصلتِ على كل تلك المعلومات؟

- أنا ليلى عاصم الكيلاني. الرئيس عاصم الكيلاني.

قالت كلماتها ببطء وهي تنظر في عينيه مباشرة وتعلم وقع كلماتها عليه. وبالفعل كان وقعها صادما كما توقعت هي..

يعلم أن للرئيس ابنة ولكنه لم يراها من قبل، لا تظهر في وسائل الإعلام ولم يسأل نفسه من قبل لماذا! ولكنه سألها الآن بعد أن ابتلع تلك المفاجأة سريعًا بعد أن تركت أثرها على وجهه للحظات.

- لا أحب الظهور، كما أن أبي يخشى عليَ من الاغتيال فهو يعلم جنوحي ورفضي للحراسة الشديدة وتقييد خطواتي.

- هذا ليس مقنعًا. لا بد من وجود سبب آخر. ولكن ما يهمني معرفته الآن هو لماذا تعادين أبيكِ!

- كيف كانت علاقتك بأبيك؟

فاجأه السؤال وحاول التهرب منه:

- لا تجيبي على سؤالي بسؤال.

- إجابتك هي نفس إجابتي؛ لا يعجبني أبي، لا أتفق معه في كثير من الأمور. أراه ظالما. هل هذه إجابة كافية لك؟

زوى من بين عينيه وهو يسألها:

- وكيف عرفتِ علاقتي بأبي؟

- أعرف الكثير عنك.

- كيف؟!

- أولًا هناك ملفًا عنك على حاسوب أبي. رجاله يعلمون بك وبجماعتك ويراقبونكم منذ فترة، ولكنهم لا يهتمون بكم كثيرًا. يضعونكم تحت الملاحظة فقط. فحتى الآن كل ما تفعلونه هو الاجتماع والكلام الحماسي ضد النظام. لا خطورة فعلية منكم. كما أن معظمكم لا يؤمن حقيقة بما يقوله.

أغضبه كلامها ولكنه كتم غضبه وسألها:

- إذا لم يكن لنا أي أهمية كما تقولين، فلماذا سعيتِ إلينا وطلبتِ منّا مساعدتك؟!

- هذا يقودنا إلى السبب الثاني، وهو أستاذي. حدثني عنك وطلب مني التعاون معك، في الحقيقة هو حدثني عنك أولا وعندما بحثت عنك اكتشفت أنك مراقب من قِبل أجهزة أبي الأمنية فتوصلت من خلال الملف الذي يحتفظون به عنك إلى كل ما أعرفه بخصوصك أنت وجماعتك. أظنها إجابة شافية.

قالت هذا وابتسمت، وهو لم يلتقط من كل ما قالته إلا كلمة واحدة سلط عليها كل تركيزه:

- أستاذك؟!

- نعم. جدك.

- ماذا؟!!

- نعم هو جدك. يعيش في مصحة نفسية منذ أعوام طويلة. كان عالمًا فذا ولكنه لم يكن محبوبًا من النظام لأنه مختلف عنه. فتم اتهامه بالجنون والقائه في تلك المصحة. لم يدافع عنه أحد أو يقف بجانبه. حتى والدك والذي كان شابا وقتها لم يهتم به لأنه كان يعيش مع والدته بعيدا عنه بعد طلاقها من أبيه. ونسيه الجميع. والدك ظن أنه مات أو أقنع نفسه بموته، لا أعلم.

كان كل ما تقوله يخترق أُذن عصام ويضرب قلبه وعقله ضربات موجعة. ولكنه حاول التماسك وسألها بهدوء:

- أريد دليلا على ما تقولينه.

- هو نفسه أفضل دليل. اذهب لمقابلته. وبعدها أظن أنك ستكون مستعدًا للخطوات القادمة.

كانت الحيرة تملأ عقله بضباب يمنعه عن الرؤية السليمة "جدي مازال حيًا! وهو من يقودنا للانقلاب على النظام! أي جنون هذا؟!"

- وكيف عرفتيه أنتِ؟

- من خلال المشفى التي يعيش فيها. أمي نزيلة هناك منذ ثلاثة أعوام. أصيبت بحالة نفسية شديدة بعد وفاة أمها وتدهورت حالتها حتى أصبح وجودها في المشفى ضرورة، أخفى أبي مرضها عن الإعلام، حتى أنه أنزلها في المشفى باسم مستعار. في البداية كان يسمح لي بزيارتها كلما أردت، ثم ضيق عليَ الأمر وجعل زيارتي لها مرة واحدة كل أسبوعين.

- ولماذا فعل هذا؟

- لأنني كنت أعود من زيارتها ناقمة عليه وحزينة، فأنا أحمله مسؤولية مرضها.

- لماذا؟!

- لم يمنحها الاهتمام الكافي، كانت تحتاجه لتتجاوز أزمتها النفسية ولكنه عاملها معاملة قاسية وأنكر عليها ضعفها وحبها لأمها. يكره الضعفاء ويعشق القوة.

- لهذا قررتِ أن تريه القلوب القوية وقسوتها.

- قررت أن أجعله يقف أمام مرآه ليرى صورته، أنا صورته التي يحبها.

- لا أظنه يحب أن تغدر به ابنته.

- هذا ما تصنعه القوة التي يريدها، قوة بلا عاطفة هي قسوة بلا رحمة.

- لا شأن لي بعلاقتك بأبيكِ ولكن ما الذي يضمن لنا ولائك وبأن قلبك لن يلين له في منتصف الطريق وتغدري بنا كما غدرتِ به؟

- لا شيء مضمون في اللعب، الجميع يسعى إلى الفوز، فأنا أيضًا لا أثق بك بشكل كامل. ومن حقك أن تكون معي دائما على حذر، ولكن لا تخشاني فلست مخيفة.

- لا أخشاكِ ولا أخشى أحد.

- جميلة هي ثقتك بنفسك، احرص على أن يستمر جمالها مهما مر عليها الزمن.

نظر إليها وشعر بأنها تسخر منه بعبارتها الأخيرة تلك، ولكنه لم يعقب عليها ونهض وهو يقول:

- هيا بنا نذهب إلى أستاذك.

-اذهب وحدك حان موعد عودتي إلى البيت. سأتصل بك غدًا لنكمل خطتنا بعد أن تكون قابلته.

وأخرجت ورقة من حقيبتها ووضعتها أمامه:

- هذه الورقة بها اسم المصحة واسمه المعروف به في المشفى ورقم غرفته.

وابتسمت في خبث وهي تردف:

- زيارة سعيدة.

نهضت وتبعها عصام بعد أن أخذ الورقة ودسها في جيبه في صمت وهو غارق في أفكاره ويشعر بالاضطراب من هذه الزيارة المرتقبة.

خرجا من المبنى واستقل كل منهما سيارته وانطلقا كلا في طريق..

اتصلت ليلى وهي تقود سيارتها بحارسها الشخصي الذي كان يتصل بها باستمرار منذ اكتشف هروبها منه. وعلمت منه أنه لم يبلغ أبيها بهروبها خوفًا من غضبه وعلى أمل أن تظهر سريعًا، فارتاحت ليلى لهذا لأنه جنبها عاصفة أبيها الغاضبة والتي كانت لا تخشاها ولكن تخشى تبعاتها لأنه كان يفرض عليها مزيدًا من القيود بعد كل مخالفة.

****

وصل عصام إلى المشفى وسأل حتى وصل إلى غرفة جده ووقف برهة ليستجمع شجاعته ثم طرق الباب، وعندما لم يجد ردًا امسك بمقبضه وفتحه ببطء..

وجد رجلا نائمًا في الفراش فاقترب منه بهدوء ثم ألقى التحية ليوقظه. فاستيقظ الرجل بالفعل وفتح عينيه ونظر إلى عصام نظرة توحي بأنه كان يعلم بقدومه.

- اجلس.

هكذا قال الرجل بهدوء.

جلس عصام على المقعد القريب من الفراش وعينيه متعلقة بملامحه وكأنه يبحث فيها عن ملامح والده وحقيقة كونه جده.

- نعم. كل ما قالته لك ليلى حقيقة.

- وكيف لم يعرف أبي هذه الحقيقة؟

- لأنه لم يبحث عنها ولم يسأل. ولكنك فعلت.

- مات وهو يظنك ميت منذ أعوام طويلة.

- هذا ما أراد أن يعرفه.

- لماذا لم تحاول أن تصل إليه؟

- لأنه كان لا يريد. وجودي يثقل ضميره ويحمله مالا يطيق.

- ولماذا وصلت إليَّ؟!

- لأنك لست مثله.

- ما الذي تتوقعه مني؟

- ما أنت عليه بالفعل، لا أتوقع منك شيئا غير متوقع.

- لماذا تمكث هنا وأنت لست مريضًا؟!

- وكيف عرفت أنني لست مريض؟

- كلامك. لا يبدو ككلام مريض نفسي أو عقلي.

- وما هو المرض العقلي في رأيك؟

فكر عصام قليلًا ثم أجابه:

- أظنه هو الخروج عن المألوف والتصرف على غير المتوقع.

- حسنًا. بهذا التعريف الذي قلته فأنا بالفعل مريض.

- ربما لم احسن تعريف المرض العقلي.

- أظن هذا أيضًا. ولكن تعريفك له مطابق لتعريفهم لهذا وضعوني هنا.

- تقصد من؟

- من لم تعجبهم أفكاري.

- كيف قضيت كل تلك الأعوام هنا؟

- لا أبالي بها فتمر في هدوء.

- هل تريد أن تخرج من هنا؟

- سأخرج قريبًا إن شاء الله.

وقبل أن يسأله عصام كيف؟ دخلت طبيبة شابة الغرفة بزيها المميز وقالت بابتسامة عذبة:

- مساء الخير.

ردا معا:

- مساء النور

تقدمت الطبيبة ووقفت على الجانب الآخر من السرير وقالت:

- يبدو أن لديك زائر جديد اليوم يا دكتور خالد.

- نعم، هذا عصام.

لمعت نظرة جذابة في عينيها وتنظر نحو عصام:

- حقًا! أخيرًا جاء؟

اندهش عصام من عبارتها وسألها:

- عفوًا ولكن لماذا قلتِ أخيرًا؟!

ابتسمت في وداعة:

- حدثني عنك دكتور خالد كثيرًا وعن والدك. كنت أعلم أنك ستجيئ هنا يوما ما.

- يبدو أنكِ تعرفين الكثير وأنكما متقاربان!

نظرت الطبيبة إلى الدكتور خالد نظرة حانية وهي تقول:

- إنه أبانا الروحي.

تعجب عصام من عبارتها ولكنه تذكر حديث أبيه عن جده وعن مثاليته ووقوفه في وجه مجتمعه، بتلك الصفات هو يعد فعلا شخصية جديرة بالحب والاحترام. ولكنه لا يزال في حالة المفاجأة ولم يستوعب بعد حقيقة بقاء جده على قيد الحياة وتحريكه لخيوط اللعبة المشارك فيها. لهذا فإن مشاعره حياله كانت غير واضحه ولا يستطيع تقييمها فتوقف عن التفكير عما يدور داخله وقرر التركيز في ما يدور خارجه وحوله ليستوعبه..

اقتربت الطبيبة من خالد وفحصت عينيه وسألته عن دواءه ثم ربتت على يده وحيت عصام بإيماءة من رأسها وانصرفت.

بادر عصام جده بسؤال بمجرد خروجها:

- هل هي مشتركه معك في خطتك؟

- أي خطة؟

- خطة ليلى. ألست أنت من يخطط ل ليلى ويحركها؟

- لا أظن.

- ماذا تعني؟!

- اسألها.

- لماذا تتحدث بغموض؟ هل تخشى أن يسمعنا أحد؟

- بالتأكيد هناك من يسمعنا. ولكن السؤال هو: هل هذا يضرنا أم هو مفيد لنا؟

- لم أفهم!

- لا تتعجل الفهم، فلم تأتِ هنا لتفهم بل لتتأكد. نعم أنا جدك هذه هي الحقيقة المؤكدة الآن وما عدا ذلك ستفهمه بالتدريج.

تنهد عصام في ضيق وهو يقول:

- لا أحب هذا الغموض.

ثم أردف:

- حسنًا اخبرني كيف عرفت عني وأنت هنا منذ سنوات؟

- هناك من كان يبلغني بأخباركم دائما وطوال تلك السنوات. أقصد أخبارك أنت وأبيك وأختك رحمهما الله.

- من هو؟!

- مخبر خاص.

- ولماذا لم ترسل لنا أي رسائل طوال تلك المدة لتعرفنا بوجودك؟

- قلت لك أبيك لم يرد وجودي واستراح لفكرة موتي.

- حدثني عنك قبيل وفاته. قال عنك أشياء جيدة وقال إني أشبهك.

حول خالد نظره إلى النافذة وبدا عليه الشرود. نظر إليه عصام وظل يتأمله في شروده ولم يشأ أن يضيف كلمة جديدة فلقد شعر بأن هذا الرجل العجوز مرت به لحظة حزن لذكرى ابنه لا يناسبها غير الصمت.

بعد دقائق قليلة عاد خالد من شروده ونظر إلى عصام:

- أعلم أن بداخلك غضب ورغبة في الانتقام. هذا لا يصنع سوى الهزيمة. أنت لا تشبهني لأنني تجاوزت الغضب. الغضب لا عقل له.

قال عصام بغضب مكتوم:

- هل تقصد أنني بلا عقل؟

- بل أقصد أن الهدف الذي تسير وراءه لن يصل بك إلى شيء، لأنه ليس هدفا. الانتقام لا يصح أن يكون هدفا.

قبل وفاة أختك ماذا كنت؟ اعتقد إجابة هذا السؤال توضح لك أن الغضب هو ما يحركك وليس تلك الشعارات التي تذكرها في اجتماعاتك مع أصدقائك. تخدع نفسك بأهداف براقة وهدفك الحقيقي مُظلم.

كان هذا أكثر مما يحتمل عصام فنهض بغضب واتجه نحو الباب وهو يقول:

- يبدو أن والدي كان على حق حين رأي أن موتك أفضل للجميع.

كانت عبارة قاسية ولكن لم يعقب عليها خالد ولم يتراجع عنها عصام وأغلق الباب وراءه في حنق. وسار خطوتين بخطى سريعة ثم سمع

صوت أنثوي ينادي باسمه فالتفت فرأى الطبيبة التي رآها في غرفة والده هي من تناديه فوقف متعجبًا!

حين وصلت إليه بادرته قائلة:

- فلتصحبني إلى الحديقة لنتحدث قليلا من فضلك.

سار بجوارها دون أن يتكلم حتى أصبحا في حديقة المشفى فأشارت إلى أحد المقاعد وطلبت منه أن يجلس وجلست بجواره.

- رأيتك تخرج غاضبًا من غرفة الدكتور خالد، كنت أعلم أن لقاؤكما الأول لن يكون هادئا.

- تعرفين الكثير! هذا غريب!

- الغريب هو أن نسير بلا رؤية حقيقية أو هدف واضح. كنت مثلك حتى رأيت.

- رأيتِ ماذا؟!

- رأيتني على حافة الخوف والوحدة، أشتعل غضبًا وأموت حزنا. جدك هو الذي أراني نفسي وهي تتهاوى وساعدني على انقاذها.

- لن أسألك كيف أراكِ نفسك ولكن أريد أن أعرف لماذا كنتِ تتهاوين؟

أراحت ظهرها للوراء ونظرت للبعيد وهي تجيبه:

- قتلوا زوجي يوم زفافنا، قتلوه لأنه رفض أن يكون ضمن الفريق الطبي المرافق لرحلات الخصوبة وأعلن رفضه لتلك الرحلات في كل مكان أتيح له، كان صوته عاليا فكان لابد من إسكاته.

للمرة الثالثة يتم مفاجئة عصام بحقيقة لا يعلمها! أولا أن هناك فتيات استطعن الهرب من رحلات الخصوبة وثانيا مفاجأته بأن جده على قيد الحياة والآن أن هناك طبيبا وربما العشرات ممن فقدوا حياتهم وهم يقفون في وجه النظام! "أين كان هو أثناء تلك الأحداث كلها؟ "هذا هو السؤال المخجل له.

- متى قُتل زوجك؟

- منذ خمسة أعوام.

- ولا زال حزنك عليه في قلبك؟!

- وهل للحزن على فقد الأحبة تاريخ انتهاء؟!

- هذا سؤال جيد، لا أستطيع الإجابة عليه.

- أعلم عن سناء، أعرف سبب حزنك، الأحزان تتشابه وإن اختلفت الوجوه.

أومأ برأسه علامة الموافقة ولم يرد.

تطلعت باهتمام في عينيه وأردفت:

- اسمع يا عصام، مهمتنا ذات أهداف كبيرة. تتجاوز حزني وحزنك ولكن هذا الحزن هو محركنا للاستمرار لأننا لسنا أبطالا في قصة أسطورية. لا أحد يغامر بدون هدف شخصي، دكتور خالد نفسه له أسبابه الخاصة.

- ولكنه سخر مني، وقال أن الغضب هو ما يحركني وليس الحق والعدل.

- هو صادق في قوله هذا، ولكن لا عيب فيه. هو فقط يريدك ألا تجعل الغضب يقودك، اجعله محركك وليس مقدمة العربة لتحدد الاتجاه أنت وتختار الخيارات الصائبة.

اعجبه كلامها كثيرًا، نظر إليها بتأمل.. منذ فترة طويلة لم ينظر إلى امرأة بإعجاب، تحديدًا منذ موت أخته، ترك الحياة وعاش في الغضب فقط.

- هل لي أن أتشرف باسمك؟

- سارة.

- جميل

- شكرًا لك

قالتها وهي تخفض عينيها خجلا لأنه أطال النظر إليها دون أن يشعر..

استغرقته ملامحها؛ عينان واسعتان بلون أسود براق، ووجه مستدير وأنف متناسق وبشرة بيضاء وشعر قصير، وجه بريء وشخصية جادة وهادئة. لم تكن تلك الصفات مما كان يجذبه من قبل. فالنساء اللاتي يشبهن عارضات الأزياء ونجمات السينما هن المفضلات عنده، لكن النساء من نوعية الطبيبة سارة كان يراهن مملات لا يصلحن للعلاقات هن فقط للزواج، والزواج ليس من أهدافه. ولكن لا يعرف الآن لماذا شعر بالانجذاب إليها!

نهضت سارة ومدت يدها لمصافحته مودعة فصافحها وهو يبتسم لها. ربما كانت هذه أول ابتسامة له منذ دهر..

وحين تحركت للانصراف استوقفها:

- سؤال أخير إن تفضلتِ.

- نعم تفضل.

- ما دورك في خطة الدكتور خالد؟

- أنا ضمن الفريق الطبي للرحلة القادمة، أعتقد هذا ما يجب أن تعرفه فقط الآن، لا يجب أن يعرف كل منّا الكثير، هذا لسلامتنا جميعًا.

أومأ برأسه علامة الموافقة، فانصرفت هي في هدوء واتجه هو إلى خارج المشفى.

قاد سيارته على غير هدى، كان يحتاج إلى وقت كافٍ للتفكير. بعد دقائق جاءه اتصال من ليلى..

تردد في الرد عليها ثم حسم أمره وامسك بهاتفه وأجاب:

- نعم ليلى.

- هل كانت زيارة جيدة؟

- لا أظن.

- لا يهم. علينا الآن تجهيز اجتماع عاجل فالرحلة القادمة تحدد موعدها بعد أسبوعين.

- كيف عرفتِ؟!

- هل نسيت أنني بروتس؟

واعقبت سؤالها بضحكة قصيرة، ثم أردفت بجدية:

- لنجتمع غدًا الساعة الثامنة مساءً، اخبر أصدقائك.

وأغلقت الهاتف..

عاد إلى بيته ورأسه مضطرب بالأفكار وجلس على حافة فراشه في إطراق.

فسمع طرقات خفيفة على الباب ثم دخلت أمه وهي تحمل مغلفًا متوسط الحجم في يدها:

- هذا المغلف أتى به شخص لا أعرفه وطلب مني أن أسلمك إياه.

أخذه منها وشكرها فانصرفت في هدوء وهي تخبره أنها ستعد له الغداء.
فتح المغلف فوجد بداخله رسالة وفلاشة حاسوب.

كانت الرسالة بها الكلمات التالية:

أنا ليلى

شاهد ما في الفلاشة ثم اتصل بي.

قام من فوره وفتح الحاسوب الموجود بغرفته ووضع فيه الفلاشة وجلس يشاهد..

كانت المشاهد التي تتابع أمامه غريبة! جثث متراكمة وأشخاص يعانون من الهزال والمرض! كانت بعض اللقطات مؤلمة جدًا وحزينة. ثم ظهرت لقطات لأشخاص في نادٍ ليلى يرقصون ويمرحون، وبعدها لقطات لنادٍ آخر يعذب فيه الناس أنفسهم بطرق مختلفة في استمتاع عجيب بالألم! ثم قفزت اللقطات إلى موكب الرئيس وهو يسير في الشارع ثم إلى صورة الرئيس نفسه بطوله الفارع وشاربه الكث وتلك القسوة التي تطل من عينيه. ثم خُتمت المشاهد بصور لفتيات وهن يقفن في صفوف استعدادا للصعود إلى طائرة. ثم صور لفتيات يعانين من تشوهات جلدية وصراخهن ملأ جنبات حجرته حتى أنه لم يحتمل وأغلق الحاسوب سريعًا، ووقف لحظة ليستجمع أفكاره حول ما شاهده ويلتقط أنفاسه فبعض اللقطات كانت غاية في البشاعة.

اخرج هاتفه من جيبه وقام بالاتصال ب ليلى:

- ما هذا الذي أرسلتهِ؟!

- الحقيقة التي لم تراها حتى الآن. كان يجب أن ترى جيدًا قبل اجتماعنا غدًا لنختصر وقت الإقناع.

- لا أفهم!

- ما رأيته الآن هو حقيقة ماضينا ثم حاضرنا وغدًا سنحدد ملامح المستقبل. من تركناهم يموتون جوعا، ومن يعيشون حياتهم الآن للمتعة فقط، ومن يتلاعب بهم الفراغ لدرجة أنهم يجدون متعتهم في تعذيب أنفسهم، ومن يملأه جنون العظمة وعشق السلطة، ثم رحلات الموت وما ينتج منها. كل هذا ملخص لعالم نعيش فيه وعلينا تغييره.

أعلم أنك كنت جزءا من تلك الصورة المشوهة حتى وفاة أختك، لهذا أظنك فهمت ما أريد من تلك المشاهد، فاستعد إلى الغد، سلام.

وأغلقت الهاتف فألقى به في غضب على الفراش وجلس بحنق على حافته.

اتجه لأحد الأدراج وأخرج مذكراته وقلمه المميز وجلس يكتب:

اليوم عرفت أن جدي على قيد الحياة، لا أعرف شعوري حيال ذلك فكل مشاعري طافية، هو أيضًا من يخطط لتلك الفتاة التي تُدعى ليلى، وهي

تقودنا وفقا لتعليماته. أن أكون جنديا في جيش جدي لهو شيء رائع، ولكنني حقا لا أشعر بشيء..

أغلق مذكراته وبدل ملابسه واستلقى على فراشه وأخذته نوبة أفكار قاسية. لم يرحمه منها سوى وجه الطبيبة الذي أطل عليه من خلف غيوم الأفكار المضطربة. لا يعرف لماذا يشعر بتلك الألفة نحوها! لم يشعر بحاجته لأحد طوال عمره، ولكنه يشعر الآن بحاجته لروح قريبة منه تمنحه مثل ذاك الشعور المريح الذي شعره اليوم وهو يجلس بجوار تلك المرأة.

الفصل الرابع

انصت لقلبك فأخطاء العقل لا صوت لها..

كان الاجتماع كما توقع عصام، تتزعمه ليلى بكل معنى كلمة الزعامة، وهو أصبح مجرد عضوا في جماعتها، ولكن هذه لم تكن مشكلته الكبرى، فالمشكلة الكبرى كانت في ما فاجأتهم به في هذا الاجتماع:

- بعد أسبوعين ستبدأ رحلة الموت، الخطة تسير كما نريد حتى الآن، ولكن الجزء الأكبر منها يتوقف على موافقتكم على الخطوة القادمة ومدى استعدادكم للتضحية.

قالت هذا ثم ابتسمت في غموض..

تساءل عصام بحذر:

-وما هي تلك التضحية التي تقصدينها؟!

- أن يصبح بعضكم فتيات، والبعض لصوص، والبعض قتلة.

تبادلوا نظرات الدهشة ثم أعادوا أنظارهم إلى ليلى التي استطردت قائلة:

- اسمعوني جيدًا، خطتنا تسير على ثلاثة محاور؛ محور سيتم في رحلة الموت نفسها، ومحور بين الشعب والمحور الأخير في قصر الرئاسة.

بالنسبة للمحور الأول كانت خطتنا تقوم على أن نجند بعض الفتيات المشاركات في الرحلة ولكن للأسف لم نحظ بتلك الفرصة، فلم نستطع تجنيد أيا منهن لأننا لم نجد من بينهن من يصلحن للمهمة، لهذا علينا القيام بتغيير طفيف وهو أن يقوم بعضكم بالتنكر كفتيات وسنعمل نحن على الحاقهن برحلة الموت.

قالت هذا وجالت ببصرها بين الرجال الجالسون في صمت ودهشة!

فريق عصام يتكون من ستة رجال، تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والثلاثين، لكل منهم قصة وسبب للاشتراك في تلك الجماعة، ولكن لم يخطر في بال أحدهم أنه سيضطر إلى أن يتحول إلى فتاة للقيام بمهام الرجال!

كان حسان هو أول المتحدثين:

- ألا ترين أن هذه الخدعة ساذجة جدًا وكشفها سيكون سهلا بشكل مؤسف؟

- لا ليست ساذجة، ولن يتم كشفها طالما التزم كل واحد منكم بدوره.

قال أحمد:

- بفرض أننا وافقنا، من منّا سيقوم بهذا الدور؟

- سأختارهم أنا، يجب أن تتوفر فيهم صفات معينة حتى يسهل التنكر. بنية صغيرة وملامح رقيقة وصوت يمكن تطويعه ليكون صوت أنثى.

نظر الرجال إلى بعضهم وتخيل كل منهم شكل الآخر وهو امرأة وبدأت موجة ضحك تسري بينهم لم يقطعها سوى صوت عصام والذي لم يضحك ولم يبتسم وكان على وجهه الضيق والغضب منذ عرضت ليلى هذا الجزء من خطتها:

- أنا لا أوافق على تلك المهزلة، لن يستطيع أحد منا اتقان هذا الدور وسيتم كشفه سريعا وستفشل الخطة.

قالت ليلى في اصرار:

- قلت لك لن تنكشف، عليكم فقط القيام بالتنكر وعلينا تغطيتكم وانجاح الخطة.

أشاح عصام بيده وهو يقول بغضب:

- هذا عبث، لا يعجبني هذا ولن أشارك فيه.

حينها سمع الجميع صوت امرأة يأتي هادئا من خلال بهو خارج الحجرة التي يجلسون فيها، كان صوت سارة! ميزه عصام بمجرد أن نطقت أول كلماتها:

- اسمحوا لي بمشاركتكم هذا الاجتماع.

كان الصوت يقترب حتى أصبحت صاحبته في أول البهو وتقف على عتبة حجرة الاجتماعات فاتجهت إليها الأنظار فاستطردت:

- كان من المفترض ألا أشارك معكم اليوم وأن أكتفي بالإنصات ولكن شعرت أنه يجب أن أتدخل لأوضح بعض النقاط.

ثم التفتت إلى ليلى وهي تقول بابتسامة صافية:

- هذا بعد اذن عزيزتنا ليلى طبعًا.

ابتسمت لها ليلى في ود:

- لا مانع طبعا تفضلي يا سارة.

اقتربت سارة ووقفت بجوار مقعد ليلى، حاولت احدى الفتيات القيام لتجلس مكانها سارة ولكنها أشارت لها أن تبقى جالسة وهي تقول:

- لا داع ميرو أحب أن أقول ما لديَ وأنا واقفة، شكرًا لكِ.

ثم وجهت حديثها لعصام وأصدقاءه:

- أولًا أعرفكم بنفسي، اسمي سارة وأعمل طبيبة في المشفى النفسي الرسمي التابع للأمن الداخلي. جميعكم تعلمون أنها مشفى لا يدخلها الناس باختيارهم. هي في الحقيقة مشفى للمغضوب عليهم وعلى أفكارهم. هذا لا يمنع أن كثير منهم مصابون بحالات نفسية بالفعل. ولكن هذا نتيجة لما مروا به من معاملة سيئة وتعذيب وتهميش وتشويه من قِبل النظام. لم يخبرونا بهذا حين التحاقنا بالعمل فيها. هذا ما عرفناه نحن بعد فترة داخلها. وقد يراودكم سؤال: لماذا لم يقتلوهم عوضا عن وضعهم في تلك المشفى؟! سألت نفسي هذا السؤال حين أدركت ماهية ذلك المكان، ووصلت إلى إجابة..

من الذكاء ألا تقتل عدوك، لأن الأعداء لا يموتون. شهداء الحق يخلفون وراءهم صوت نداء لا يتوقف صداه في آذان الناس وهم دائما بذور للثورات، كلما قمت بدفنهم نبتوا وأثمروا.

لهذا أفضل الحلول لقتل شجرة التمرد واقتلاع جذورها هو تشويه المتمردين وتزييف حقيقتهم. لا يتبع أحد ثائر مجنون. لا يهتم أحد بما يقوله المجانين، يصدق الناس أنهم فقدوا عقولهم، ثم بمرور الوقت يصدقون هم أنهم بالفعل كذلك فتنتهي القضية وتتوقف الشجرة عن الطرح.

لكن مالا يتوقعونه هو أن هناك من لا يصدق ولا يستسلم؛ طفرة متمردة لا يتوقعها أحد قادرة على أن تحي عظام الثورة وتجدد خلاياها وتنبت أزهارها من قلب المستحيل. وهذا ما فعله دكتور خالد. أنتم لا تعرفونه، ولكن نحن نعرفه جيدًا.

يكفي أن أخبركم أنه من أنار لنا الطريق. ليلى تقترح أن يقوم ثلاثة منكم بدور حصان طروادة، لا سبيل لإفشال رحلة الخصوبة إلا من داخلها.

أحمد: ولماذا لا يقوم بهذا الدور هاتهِ الفتيات.

وأشار نحو البنات الجالسات معهن على الطاولة.

التفتت إليه سارة وأجابته:

- لأنهن معروفات للنظام ويبحثون عنهن. كما أنهن خائفات من تلك الرحلة وقمن بالهرب منها بالفعل فكيف سيشاركن فيها برضاهن؟! الخطة تحتاج لقلوب لا ترتجف لأنها ستواجه قلوب لا ترحم. هؤلاء الجنود المصاحبون للفتيات لديهم تعليمات مشددة وأوامر بقتل مثيري الشغب أو المتمردين.

تنهد عصام في حزن وطيف أخته يمر بقلبه ثم قال:

- ولماذا لا نتنكر في صورة جنود؟ هذا أفضل في رأي وأكثر فاعلية.

اجابته ليلى سريعا:

- هذا صعب جدًا، فكرنا فيه ولكننا لم نجد السبيل لتنفيذه. ليس أمامنا سوى أن ندسكم وسط الفتيات. نستطيع الدخول إلى برنامج الرحلة وإضافة اسماء ثلاثة فتيات لا وجود لهن بالفعل، سيقوم ثلاثة منكم بأداء هذا الدور، ولن نتركهم وحدهم؛ الطبيبة سارة ستكون مرافقة لهذه الرحلة مع طقم طبي قامت هي باختياره بنفسها فهي رئيسته. وهم سيمنحونكم حماية كافية وتغطية جيدة لتحركاتكم.

مال حسان للأمام وقال بسخرية:

- سنكون ثلاثة فتيات أمام عشرون رجل مقاتل! هذا ليس عدلا ومخيفا لأنوثتنا.

قال هذا وغمز بعينيه.

فضحك أصدقاؤه وليلى والفتيات وابتسمت سارة.

كانت ابتسامتها هي ما جذبت تركيز عصام، كانت جذابة حتى أنه لم يشعر بنفسه وهو يبتسم لتلك الابتسامة الساحرة..

- لا أهمية للعدد أمام العقل، لديهم القوة ولدينا الذكاء وعنصر المفاجأة، هكذا تصبح المباراة عادلة.

قالت ليلى هذا ردًا على حسان الذي ابتسم لها اعجابا وموافقة.

كان من الواضح أنهم أصبحوا شبه متفقين والأمور ستسير للأمام في ثبات، ولكن حين جاءت لحظة الاختيار بدأ التردد يجد طريقه إليهم.

اختارت ليلى ثلاثة، أحمد وعادل وحسام. لم يظهر على أي منهم الرضا، وهذا لاحظه عصام لهذا قال موجها كلامه إليهم:

- هذه عملية فدائية، لستم مجبرون على الموافقة، الاختيار لكم.

تنحنح عادل وقال بخجل:

- حسنًا، أنا لا أستطيع القيام بهذا الدور وأرجو اعفائي منه.

- هذا حقك.

فهتفت ليلى:

- مهلا عصام، لا ليس حقه، هو شريك معنا في تلك المهمة، يجب أن يقوم كل منّا بدوره لكي ننجح كلنا. انسحاب عادل يضعنا في ورطة. من سيكون بديله؟ من تبقى لا تصلح أجسامهم ولا ملامحهم للدور. كما أن أحمد وحسام وحدهما ليسا كفاية. نحتاج لثلاثة أشخاص على الأقل.

فكر عصام في كلامها، ثم بدى وكأنه يريد أن يقول شيئا ومترددا فيه، ثم حسم أمره واعتدل في جلسته وقال ببطء:

- سأذهب أنا بدلا من عادل.

أخرجت ليلى صوتا مستنكرا وأشاحت بيدها وقالت:

- هذا عبث، لا تصلح؛ طولك وبنيتك سيجعلانك تبدو گ..

لم تكمل عبارتها فأكملها هو وقال ببساطة:

- كرجل متنكر في صورة امرأة!

نظرت إليه من طرف عينيها بسخرية:

- أظن هذا.

- حسنا، لماذا لا أكون ضمن الوفد الطبي؟

- لأنهم معروفون للأمن ولديهم سجلاتهم. يدققون كثيرا في اختيار الجنود والوفد الطبي، أما الفتيات فهن مجرد أسماء لهم وعددهن كبير؛ لهذا نستطيع أن ندس وسطهن من نريد.

- أظن أنني استطيع القيام بهذا الدور وخداعهم. لا تنسِ أنني أعمل مصمم إعلانات والخداع لعبتي.

قالت بتهكم:

- الخداع وليس التنكر. سيتم كشفك دون حتى أن تتحدث.

تجاهل أسلوبها عندما لمح نظرة سارة، وأخذ يفكر في معنى تلك النظرة!

ولكنه التفت إلى صوفيا عندما سمعها تقول:

- تنكركم مسؤوليتي، سأجعلكم فتيات حتى ولو اضطررت لقص عدة بوصات من أقدامكم.

وضحكت وضحك الجميع معها، ثم كانت الدقائق التالية حوارا حول التفاصيل والتي لم يعلموا منها إلا ما يخصهم فقط كالعادة، ولكن بدا أن الجميع أصبحوا فريقا واحدا بشكل حقيقي. حتى أن عصام قام بهدوء وأحضر كرسيا اضافيا من احدى الحجرات ووضعه بجوار ليلى لتجلس عليه سارة وهو يقول لها:

- تفضلي فالاجتماع سيطول كما يبدو.

فابتسمت له بخجل وشكرته وجلست.

تم الاتفاق على عمل بروفة في اليوم التالي لتنكر كل من أحمد وحسام وعصام. حتى يتسنى التقاط صورهم لإرفاقها بالملف الخاص بهم لتكن بياناتهم كاملة قبل بداية الرحلة.

وجاء الحديث بعد هذا عن المحورين الآخرين.

وبدأت ليلى الشرح:

- الباقون منكم دورهم كالآتي. اثنان سيكونان معي في قصر الرئاسة والأخير ستكون مهمته قنص أحد الشخصيات الهامة.. الهامة جدًا.

كان كلامها صادمًا لهم حتى أنهم بدوا غير مستوعبين له وفي انتظار التوضيح. فأكملت ليلى:

- أنا أعيش في قصر الرئاسة.. نعم، أنا ابنة الرئيس.

كانت عبارتها تلك كقنبلة انفجرت بينهم، حتى بدى التوتر والدهشة والحيرة على وجوههم وربما الخوف!

ولتهدئة الموقف نظر عصام نحو فريقه وقال:

- هي معنا وضد والدها ولها أسبابها الخاصة، فلنتجاوز تلك النقطة من فضلكم لنكمل فهم الخطة.

لم يعترض أحد أو يرد ولكن ظلوا على اندهاشهم ومحاولة الفهم.. فاستطردت ليلى:

- من منكم على استعدا لحمل السلاح؟

أجابها عصام:

- هل تتحدثين عن قتل مسؤول حقا؟!

- لا ليس قتلا، سنصيبه فقط. نحتاج لهذا لتكتمل الخطة. ولكننا نريد اصابة قوية ترقده عدة أيام في فراشه.

- من هو هذا المسؤول؟

- لا يهمكم معرفة اسمه الآن بقدر ما يهمنا تحديد من سيقوم بإصابته.

من منكم يستطيع؟

كانت توجه كلامها للثلاثة الباقين عادل وحسان ورؤوف.

فقال رؤوف:

- أنا استطيع.

- حسنا، إليكم التفاصيل.

شرحت لهم دور كل منهم والجميع ينصت إليها باهتمام.

الفصل الخامس

أهم معاركك وأقساها هي تلك المعركة التي ستخوضها مع قلبك..

كانت الأيام القليلة التالية كالمارثون يركض فيه الجميع، النظام يستعد لرحلة الموت وجماعة اسقاط النظام تستعد لمواجهته.

وقف عصام أمام المرآه ينظر إلى نفسه في خجل. كانت مهارة صوفيا على وجهه واضحة، استطاعت أن تحوله حقا إلى أنثى. لكن المشكلة كانت في هيكله الجسماني!

طوله وعرض أكتافه جعلا شكله يبدو مضحكا عندما يقف.

لمح نظرة صوفيا إلى قدميه فنظر إليهما ثم رفع بصره إليها في يأس:

- قلتِ أنكِ ستقصين بوصتين من قدمي، فلماذا لم تفعلي؟

ضحكت قائلة:

- لم أجد مقصًا لهذا الحجم من العظام.

وقبل أن يرد على مزاحها سمعا طرقا على الباب، فارتبك عصام والتفت دون وعي يبحث عن ساتر يخفيه. ولكن الباب فُتح وظهرت ليلى.

كانت ضحكتها كافية لينزع عصام الشعر المستعار عن رأسه ويرميه في وجهها بغضب ويهرع نحو الحمام في حركة بدت شبيهه جدًا بحركة أنثى غاضبة ولم تستطع ليلى التوقف عن الضحك وأتى الجميع على صوت ضحكاتها في فضول.

لكنهم لم يلمحوا سوى ليلى وهي مستمرة في ضحكها الهيستيري وفي يدها شعر أنثوي مستعار وأمامها تقف صوفيا حائرة بين مشاركة ليلى الضحك أو ارضاء عصام الذي اخفى نفسه في الحمام غضبا وخجلا.

كان أحمد أول السائلين:

- ما الأمر؟! وأين عصام؟

سيطرت ليلى أخيرا على ضحكاتها وأشارت نحو الحمام، ثم رفعت الشعر المستعار إلى رأسها وقلدت عصام وهو يجري نحو الحمام بشكل هزلي تسبب في نوبة ضحك للجميع.

ظهر عصام بعد أن بدل ثيابه وعاد إلى شكله الذكوري، خرج على صوت ضحكاتهم وكل آيات الغضب ترتسم عليه وبدت محاولته لمسح آثار مساحيق التجميل ظاهره على وجهه.

سكت الجميع حينما رأوا نظرته الغاضبة. فقال بحنق:

- هذه خطة فاشلة ولن أشارك فيها.

أجابته ليلى بهدوء ووجهها لازال محمرا من أثر الضحك:

- حسنا، هناك حل وحيد آخر. وهو أن تقوموا بخطف ثلاثة جنود وتأخذون أماكنهم. ولكن هذه مخاطرة كبيرة جدا لا أستطيع معرفة نتائجها فنسبة فشلها كبير لأننا لا نستطيع تغطيتكم أو مساعدتكم فيها.

- لا عليكِ نقبل المخاطرة. هذا أفضل من القبض علينا بملابس النساء، هذا لا يليق بنا أبدا.

هزت ليلى كتفيها وقالت ببساطة:

- فلتقوموا بهذا إذًا. سأمدكم بملف به أسماء الجنود المرافقين للرحلة ومعلومات عنهم وعليكم أن تتصرفوا وحدكم في هذه المهمة. ولكن انتبهوا فالوقت قصير جدًا.

تنهد عصام وشد قامته وشعر وكأنه يستعيد رجولته وزعامته وشعر بالراحة لأن سارة لم تكن موجودة ولم تراه في تلك الصورة الهزلية.

****

جلست ليلى في سيارتها وقالت مخاطبة حسان وعادل:

-اهبطا للأسفل لا يجب أن يراكما أحد معي في السيارة.

فهبطا بهدوء دون كلمة، فانطلقت بسيارتها نحو القصر..

حينما وصلت إلى البوابة الأولى نظر الحراس إليها وسمحا لها بالعبور دون الاهتمام بالنظر داخل السيارة، فهذه ابنة الرئيس وإن كان عدم وجود حارسها الشخصي بجوارها استرعى انتباههم ولكنهم لم يعلقوا، فلقد حدث هذا من قبل.

قادت بهدوء حتى وصلت إلى البوابة الثانية التي لم يختلف الأمر معها عن الأولى. وأصبحت ليلى بداخل حديقة القصر المهيب وفي مقعد سيارتها الخلفي رجلين متسللين لم يعلم عنهما أحد شيئا.

كانت المهمة الأصعب هي خروجهما من السيارة ودخولهما إلى القصر نفسه. كان هذا الجزء من الخطة هو الخطر حقا.

أوقفت ليلى سيارتها في المكان الذي اعتادت على توقيفها فيه وخرجت منها بهدوء. كانت تخطط لهذا من فترة. فمنذ شهر تقريبا وهي توقف سيارتها أسفل نافذة غرفتها. اعترض الحراس في البداية فهذا يعيق عملهم. فالسيارات يجب أن تكون بداخل الجراج الملحق بالقصر. ولكن لأنها عنيدة، والجميع يعلم بعنادها فالأمر لم يستغرق سوى مخالفتين آخرتين ومجادلتين ثم استسلم الحراس للأمر الواقع. لهذا عندما تركت ليلى سيارتها أسفل نافذة غرفتها كان الأمر عاديا ولم يلتفت إليه أحد.

وصلت إلى غرفتها وأغلقت بابها وخرجت إلى الشرفة واطمئنت إلى أن السيارة في مكانها، فبدلت ملابسها وهبطت إلى المطبخ وتناولت بضع لقيمات من الأواني الموجودة على الموقد ثم قالت للطباخ الذي كان منهمكا في عمله ومعتاد على دخولها المطبخ بهذه الطريقة:

- بعد ساعتين أريدك أن تعد لي وجبة الغداء وترسلها إلى غرفتي، ولكن زد من الكمية لأنني جائعة جدًا.

انحنى انحناءه بسيطة تعبيرا عن فهمه للأمر وعادت ليلى إلى غرفتها.

جلست على حافة الفراش وهي تمسك بهاتفها في توتر، كانت تنتظر أن تصل عقارب الساعة إلى الرابعة بالضبط. ففي تلك الساعة من كل يوم تأتي سيارة الجنود المحملة بالحراس ليتم تغيير طقم الحراسة استعدادا لنوبة الحراسة الليلية. وهذه اللحظة كانت أفضل لحظة لصعود عادل وحسان إلى القصر حيث أن كل الحراس يكونون في تلك اللحظة عند البوابة الخارجية لتغيير الحراسة.

ودقت الساعة الرابعة بعد دهرا من الوقت، فاتجهت ليلى إلى شرفتها ونظرت أسفلها وقامت بالاتصال المرتقب بحسان وهي الاشارة المتفق عليها لخروجهم من السيارة. القت اليهم بحبل معقود عدة عقد ضخمة ليسهل عليهم تسلقه، وبخفة التقما الحبل وصعدا عليه سريعًا وليلى ترقب لهم الحديقة تحسبا لأي مفاجأة.

كان وقت العصر دائما هادئا وفيه خمول في كل شيء. والحركة قليلة جدًا لهذا وصل كلاهما في ثوانٍ بأمان إلى داخل غرفة ليلى وسحبا الحبل إلى

الداخل.. ونجح أول جزء من الخطة بشكل رائع جعلهم ينظرون إلى بعضهم بابتسامة فوز برغم أن القادم أخطر..

*****"***

وقف عصام على باب غرفة جده مترددا..

كان شيء بداخله يدفعه للكلام معه، للاقتراب منه، لفهمه. ولكن كانت هناك أشياء تمنعه، تحذره، ترسم لقدميه ألسنة لهب وصخور وأشباح حتى لا يتقدم، لا يقترب.

ووقف يسأل نفسه "لمن اسمع وأستجيب؟" فكلهم بداخله يتصارعون وعقله يدور بهما كعاصفة ريح لا استقرار لها.

وفي خضم تلك الزوبعة سمع صوت خلفه فالتفت..

وجد نفسه يقف في مواجهة جده. والذي يبدو أنه كان قد عاد من وقت تريضه في الحديقة لأنه كان يحمل وردة في يده ويمسك ممرضه بذراعه. التقت نظراتهما والممرض يفتح الباب ليدخل منه الجد.

لم يتحدثوا ولكنهم دخلوا إلى الغرفة.

اجلس الممرض الجد على الفراش وسحب الغطاء على قدميه وتركه وانصرف. وقف عصام أمام فراش جده يفكر كيف يبدأ الكلام معه، فلقائهما السابق لم يكن موفقا، وخشى من حدوث صدام جديد. لهذا كان عليه أن ينتقى كلماته وحالته العقلية والنفسية لم تكن تسمح له بهذا الانتقاء.

ولكن الجد حسم الموقف حين بدأ الكلام وهو ينظر أمامه وكأنه يحدث نفسه:

- كانت أمي تعد لنا فطائرا لذيذة كل صباح، لم يكن فطورنا تقليديا أبدًا. كانت تغني وهي تعد الفطور، وترقص أحيانا.. ونأتي من وراءها ونشاركها تلك البهجة، فتلتفت إلينا وتبتسم ثم تعود لصنع فطائرها اللذيذة.

لم أنسَ مذاق فطائر أمي، حتى بعد أن رحلت ورحلت معها فطائرها. في كل مرة أشعر فيها بالجوع أشتهي فطائر أمي..

توقفت أمي عن صنع فطائر البهجة حين بدأت تصنع فطائر الحزن. مات أخي في حادث سيارة. سائق فقير صدمه وهرب. كان ينتقم من أبي لأنه فصله من العمل، وبسبب فصله هذا تم طرده من سكنه وهجرته زوجته وابناؤه.

كان الغضب بداخل أمي ينازع الحزن في مكانته، وأصبح الفقراء منذ هذا اليوم هم أعداء أمي. ولم أدر هل لو كان القاتل ثريا هل كانت ستكره الأثرياء؟!

أصبحت أمي تعد لنا فطائر الحزن كل صباح، لم يكن فطورنا تقليديا، كانت تبكي وهي تعد الفطور، تنهار أحيانا، وأجئ من ورائها لأشاركها ذاك الحزن؛ أجلس في صمت وأنتظر فطائرها الحزينة. فلا تلتفت حتى تنتهي من صنعها.

وصمت الجد..

فجلس عصام على المقعد الذي بجوار السرير، وعينيه لم تنزل عن وجه جده، وقلبه لم يجلس، بل أخذ يخفق ويضطرب ولم يدر ما أمره!

ثم استجمع قدرته على الكلام وقال:

- أنت حقًا لا تنتمي إلى هذا العالم. تبدو مختلفا في كل شيء. كيف استطعت أن تقاوم وأن تستمر وأنت بهذا الاختلاف؟! لماذا لم تستسلم؟!

التفت إليه جده وتأمله لحظة ثم قال:

- قد تشعر بأنك موسيقى تُعزف لجمهور أصم، أو قارب فارغ في وسط بحر هائج، أو أنك حُلم غريب في مدينة لا ينام أهلها، قد تشعر باختلافك ووحدتك وتهميشك، كل هذا سيء. لكن الأسوأ منه هو أن تشاركهم جرمهم، وتبدأ في كراهية نفسك وتمنحها لهم قربانا على مذبح قسوتهم.

- معنى هذا أنك لا زلت تشعر بالسلام داخلك؟ لم تبدأ في صنع فطائر الحزن أو تكره من ظلموك وألقوا بك هنا؟!

- فطائر الأمل تُصنع من الإيمان والصبر. فطائر الأمل هي الغذاء الوحيد الذي يُشبع الحياة ويشّبعنا بها.

قال هذا ثم ركز عينيه في عين عصام وهو يقول ببطء:

- هل تؤمن بالله؟

فوجئ عصام بالسؤال لكنه قال بعد لحظة تفكير:

- نعم.

- كم مره تتذكره في اليوم؟

تردد عصام في الإجابة وفكر قليلا ثم قال:

- في الحقيقة لست من أسرة متدينة، لم أر أبي يصلي ولكنه تحدث عنه قبل وفاته، وسمعت أمي بعد وفاة أختي وهي تذكره. تدعوه وتؤكد لنفسها ولنا وجوده، وكأنه طوق نجاة لها من الحزن؛ تتشبث به لتنجو. أو لتربت على قلبها بأنها سترى أختي مرة أخرى وأنها لم تفقدها للأبد.

- هل حاولت أن تتحدث معها عنه؟

- لا، لم نعد نتحدث. أخشى الكلام معها منذ هذا الوقت وكلما اقتربت منها أرى شبح سناء يقف بجوارها أو يتشكل على جسدها أو يأخذ ملامحها.

- لا زلت تحمل بداخلك هذا الإنسان الذي خلقه الله فلا تضيعه. الحب يحتضر في هذا الجزء من عمر الكون، اجعل الحزن يبقيك على طريق الحب.

- لا أفهم هذا! ولكن هناك ما أريد أن أفهمه حقا. إلى أين سيصل بنا هذا الطريق الذي نسلكه؟ هل نحن على الطريق الصحيح؟

- كل طريق يصل بك إلى الحق هو طريق صحيح. ما أريدك أن تحذره فقط هو الغضب.

قال عصام بغضب مكتوم:

- أتحدث معك بهدوء، وأفكر في خطواتي بهدوء. لا أدري كيف ترى هذا الغضب الذي تدعي أنه بداخلي!

- لأنني أرى الحيرة في عينيك. لهب النار لا يستقر أبدا. يترنح كالثمل ليفسد ويحرق كل شيء. لكن النور ثابت ومستقر. عندما يملأ النور قلبك سينتهي غضبك ويتبع بصرك النور فتنتهي حيرتك.

- ومن أين يأتي هذا النور؟!

- من الله.

لم يدر عصام بماذا يرد! يحيره هذا الرجل! حتى تلك اللحظة لا يشعر نحوه بشيء حميمي؛ بل بفضول وحيرة ورغبة شديدة في فهمه!

عاد إلى بيته دخل إلى غرفته وامسك قلمه وكتب:

" الله.. هذه الكلمة تتردد كثيرًا حولي في تلك الفترة الغريبة التي أمر بها. وبدأت تتردد داخلي بصورة أكبر!

عشت طوال عمري لا تشغلني نهايتي، أفعل ما أريد وأضع القواعد والقوانين لنفسي وأسّير حياتي كما أشاء. تناسيت وجود الله، فكل من

حولي نسوه. حتى أن كثير ممن أعرفهم لا يصدق بوجوده. ولكنني أصدق، أعلم أنه هناك يرانا ولا يتحدث معنا، أظنه توقف عن الحديث معنا منذ توقفنا نحن. يبدو أنني مثل والدي أخشى أن أكون مختلفا حتى لا أُهمش أو يضعني الناس في بؤرة الازدراء. اتذكر هذا الولد الذي كان مختلفا عنا. كنا كلنا في عمر متقارب يتراوح بين الحادية عشرة والخامسة عشرة، وكان هذا الولد يسكن معنا في نفس الحي ويذهب معنا نفس المدرسة ولكنه يبدو مختلفا. هادئ جدًا، لا يسب ولا يقول ألفاظا سيئة، يمنعنا من معاكسة الفتيات في الشارع والقاء الحجارة على القطط. يقول هذا حرام وهذا حرام ولا يجد منّا سوى نظرات السخرية وكلمات بذيئة. حتى ذلك اليوم الذي تشاجر فيه مع ولد آخر لأنه رآه وهو يسرق من أحد المتاجر، واجبره أن يعيد ما سرق وإلا أبلغ صاحب المتجر. ولكن الولد السارق لم ينسَ هذا وتربص به في أحد الليالي وطعنه في قلبه.

عرفنا حينها من القاتل وما الدافع ولكن لم يتكلم أحد منّا ولم نهتم! كنت أرى حزن أبيه وبكاء أمه ولم أهتم.. وكأن أحدهم أغلق مصباح قلبي وأنوار الإحساس فيه.

هذا المجتمع المظلم به من الظلام ما يكفي لإخفاء نور الشمس"

كتب هذا وأعاد ظهره إلى الوراء وهو يتأمل تلك العبارة الأخيرة ويفكر..

وانتبه من أفكاره على صوت طرقات على الباب، فنهض بتثاقل وفتحه، وكانت أمه..

- هناك شيء أريد أن اتحدث معك فيه.

- ما هو؟!

- تعالى إلى غرفتي.

وسارت نحو غرفتها فسار ورائها في صمت، حتى وصلا ففتحت الباب ودخلا.

جلست على حافة الفراش وأشارت إليه ليجلس وفتحت درج الكوميديون وأخرجت منه جهاز صغير مدت يدها به إليه وهي تقول:

- هذا الجهاز مسجل عليه الكثير بصوت والدك. كانت كل قضية يدرسها ويبحث فيها يقوم بإعداد مرافعتها على هذا الجهاز. ويحتفظ به معه دائما ليعيد سماع مرافعاته وملاحظاته حول القضايا التي تولاها. منذ وفاته وأنا أستمع لصوته منه. وكلما شعرت بالشوق إليه أفتحه وأنصت. كان أبيك محاميا بارعا ومفوهًا ومرافعاته جذابة. لهذا أستمع إليها بحزن ممتع. أعلم

أن ما أقوله لا يهمك. ولكنني أردت أن تنصت إليه كما أنصت أنا. ستجد في مرافعاته الكثير عن الحق والعدل والخير. ربما تبدو تلك المبادئ الآن فارغة، ويتم تداولها فقط في أروقة المحاكم أو للتحايل للحصول على شيء ما. لكنني أريدك أن تفهمها وأن تملأ فراغ هذه المبادئ بتصديقك لها.

ثم مالت عليه وقبلته من وجنته ومسحت على شعره وهي تقول:

- لا أريد فقدك أيضًا. اهتم بنفسك وسر بها نحو النور.

كان هذا الكم من العلامات والاشارات كفيلا بأن يجعل عصام على يقين من أن هناك من يريده أن يستيقظ، أن يتغير، أن يعود إلى الله..

خرج من الغرفة وهو يحمل صوت أبيه ووصية أمه. هرع إلى تلك المكتبة الضخمة التي كان أبيه يجلس فيها بالساعات. بحث عن هذا الكتاب الذي ذكر والده أنه وجده وهو صغير وهرع به إلى أبيه يسأله عنه. بحث حتى وجده. كان الكتاب هو القرآن.

وجلس عصام لأول مرة ليقرأ فيه..

الفصل السادس

كيف تعرف اتجاهك وعيناك تتبع الظلام؟!

كانت ليلى ورفيقيها يتشاورون في خطواتهم القادمة حين طرق الباب، فاضطرب حسان وعادل ولكن ليلى أشارت إليهما ليهدئا وهي تهمس:

- هذا بالتأكيد الطعام الذي طلبته لا تخافا وادخلا إلى الحمام حتى يرحل الخادم.

غرفة ليلى فسيحة؛ فراش وثير على أحد جانبيه طاولة يسترخي فوقها حاسوب وبعض الكتب، وعلى جانبه الآخر كوميديون بثلاثة أدراج، وفي الجهة المقابلة صوانا للملابس لو فتحناه لرأينا عالم غريب من الملابس وأشياء غير مرتبة أو منسجمة. وبجواره شرفة جميلة تطل على حديقة القصر وعلى الجدران الكثير من اللوحات والصور. ما بين صور لفنانين ولوحات غامضة لرسامين مريبين..!

فاللوحات كانت مسرحًا لمذبحة قامت بها فرشاة على جسد الورق. هذا أقل ما يمكن قوله لمحاولة وصف تلك الألوان الصاخبة والمتداخلة بدون أي تفاصيل يمكن فهم اللوحة منها!

بعد رحيل الخادم وخروج عادل وحسان من الحمام لفت انتباه حسان تلك اللوحات فوقف أمام احداها. نادت ليلى عليهما ليأكلا فاقبل عليها عادل، أما حسان فظل يتأمل في اللوحة وكأنها قد سحرته بتعويذة ما!

فنادت عليه ليلى ثانية وقالت وهي تبتسم:

- هل أعجبتك إلى هذه الدرجة؟!

انتبه حسان على صوتها والتفت إليها قائلا وعلامات البله ترتسم على وجهه:

- هذه أبشع لوحة رأيتها في حياتي.

انفجرت ليلى ضاحكة فلم تتوقع هذا الرد وتلك النظرة منه!

سارع عادل بتنبيهها لضرورة أن تخفض صوتها حتى لا يسمعهم أحد.

فهدّأت من ضحكتها وقالت بصوت مرح:

- عفوًا ولكن هذا كان مضحكا جدًا.

فجلس حسان قبالتها وهو يضغط على أسنانه غيظًا:

- ما المضحك؟! أنني أراها لوحة بشعة؟

قالت وعينيها تضحك:

- بل نظرة البله التي رفرفت بعينيك مع طريقتك في القاء تلك العبارة. كان هذا تلقائيا جدًا ومضحكا.

لم يعجبه ما قالته ولكنه لم يشأ أن يطيل هذا الحوار فلقد لمح الطعام وكان جائعا جدًا.

مد يديه دون كلمة وبدأ يأكل فرمقته ليلى بنظرة مرحة أخرى ثم بدأت هي الأخرى في الأكل ومعها عادل.

بعد الطعام مرت عدة ساعات قضوها في الحديث الهامس عن خطتهم. ثم رقدوا ليرتاحوا قليلا وانتظارا للمساء ونوم جميع من في القصر. رقدت ليلى على فراشها وافترش عادل وحسان الأرض.

لم يستطع أحدهم النوم بسبب القلق الذي كانوا يشعرون به.

وظلوا هكذا حتى دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فنهضت ليلى وأخبرتهم بأن هذه هي ساعة الصفر.

اتجهت بهدوء إلى باب غرفتها وفتحته ونظرت إلى الخارج بحذر، ثم تقدمت بضع خطوات في البهو حتى اطمأنت لعدم وجود أي شخص قريب منهم، فعادت أدراجها وأشارت لعادل وحسان أن يتبعاها. سارا ورائها في هدوء حتى وصلوا إلى الدرج فأشارت إليهما اشارة خاصة واتجه كلا منهما حسب الخطة المتفق عليها. كانت ليلى قد رسمت لهما القصر من الداخل، لهذا كانا يتحركان عن معرفة بتفاصيله. كان المطلوب هو الوصول إلى غرفة الخزينة. لكن تكمن المشكلة في وجود مجسات وأجهزة استشعار لأي حركة داخلها ملحقة بأجهزة الإنذار التأمينية الرئيسية للقصر. لهذا كان يجب إيقافها أو تعطيلها. وكانت خطة ليلى في هذا الشأن رائعة ومغامرة في نفس الوقت.

حمل كل من عادل وحسان طبق من البلاستيك الخفيف. سار كل منهما في طريق حتى وصلا إلى الأماكن المتفق عليها وألقي كلا منهما طبقه، فطارا بشكل دائري حتى وصلا إلى دائرة الإنذار فانطلق.. ثم عادتا إليهما.

فالتقطاها خلال ثلاث ثوان، وهرعا سريعا إلى غرفة ليلى. كانا يركضان بخفة ودون أحذية حتى لا يُسمع صوت أقدامهما. وليلى تقف أعلى الدرج ترقب لهما الطريق وفور صعودهما دخلوا جميعا إلى الغرفة وأغلقت الباب..

عم الاضطراب أرجاء القصر مع صوت أجهزة الإنذار. انتبه الجميع؛ حرس الرئيس والخدم والجند المرابطين خارج القصر. حاول الرئيس الخروج من غرفته ليستطلع الأمر ولكن حرسه الخاص نصحوه بألا يخرج حتى يقبضوا على المتسللين. فعاد أدراجه إلى غرفته. كانت الساعة التالية مليئة بالتوتر للجميع. وصل بحثهم إلى غرفة ليلى التي تجاهلت الطرقات في البداية ثم صرخت بصوت عالٍ دون أن تفتح:

- من؟!

ففتح الباب فجأة وظهر قائد الحرس ومعه جنديين ولكن ليلى لم تكن في فراشها، بل كانت في الحمام وتقف خلف بابه الموارب ورأسها خارجه تستطلع القادم ونظرات الغضب في عينيها وتلف جسدها بمنشفة كبيرة، فتحرج قائد الحرس ونظر أرضًا وهو يقول:

- نعتذر سيدتي ولكن انطلق جهاز الإنذار ونحن نبحث عن المتسلل.

ضحكت ليلى بصوت ساخر وهي تقول:

- وهل تتوقع أن يكون هنا؟! أمامك الغرفة فابحث فيها كما تشاء، قد تجد هذا الشبح الذي أرعبكم.

لم يرد قائد الحرس على سخريتها واشار للجنديين بالبحث في أرجاء الغرفة والشرفة وتحت الفراش وحتى صوان الملابس فتحاه ولم يجدا شيئا!

فنظرت إليهم ليلى باستهزاء:

-هل ممكن أن تسمحا لي بإكمال استحمامي أم تريدون البحث عن هذا الشبح هنا تحت رشاش الماء؟

تنهد قائد الحرس في ضيق وتمتم بكلمات آسفة وخرج وتبعه الجنديان وأغلقوا الباب.

التفتت ليلى إلى داخل الحمام وأزاحت الستارة المحيطة بالدوش وقالت مازحة:

- هيا يا أشباحي موعد الخروج للنزهة.

نهض حسان وعادل وخرجا من الحمام إلى الغرفة، ونزعت ليلى المنشفة فبدت وهي ترتدي كامل ملابسها أسفلها.

قال عادل بصوت خافت وهو يجلس على أحد المقاعد:

- كم علينا أن ننتظر للمغامرة الثانية؟

نظرت ليلى إلى الساعة ثم جلست على حافة الفراش وهي تقول:

- ننتظر ساعة أخرى، حتى ييأسوا ثم يعود كلٌ إلى مكانه.

فتنهد عادل وقال:

- أرجو ألا يتخلى عنا الحظ.

- ليس حظا، بل هي لعبة كر وفر حتى يسأم العدو ويبدأ في التراخي.

نظر إليها حسان وسألها:

- متى ستخبرينا بسر عداوتك لأبيكِ؟

أجابته في ضيق:

- هذا ليس من شأنك.

شعر بالحرج ولم يرد..

مرت الدقائق بطيئة حتى جاء الموعد المحدد، فأشارت لهما ليلى أن يستعدا واتجهت إلى الباب وفتحته بحذر.

نظرت أسفل الدرج ولم تجد أحدا، هبطت وسارت بخفة حتى تأكدت أن الجميع رقدوا والحراس يقفون خارج القصر كالمعتاد. فعادت أدراجها إلى غرفتها وقالت لرفيقيها:

- الطريق آمن، انطلقا.

فهبطا وهما يحملان لعبتهما المثيرة.

وأعادا الكرة بإلقاء الطبقين ومن ثم إطلاق أجهزة الإنذار والعودة سريعا إلى غرفة ليلى.

وفزع الجميع ثانية وحدث الهرج والمرج الذي توقعوه، وانطلق الجميع في البحث شبرا شبرا في أنحاء القصر حتى أرهقوا ولم يجدوا شيئا، وفتشوا غرفة ليلى ثانية والتي كانت ترقد في فراشها هذه المرة وعادل وحسان في قاع البانيو المملوء بالماء والصابون الذي خلفه استحمام ليلى

المزعوم ولم يخطر في بال الجنود تصريف الماء أو البحث داخله. وخرجوا تتبعهم كلمات ليلى الساخرة.

بعد ساعتين آخرتين وقبيل الفجر بلحظات انطلق جهاز الإنذار للمرة الثالثة، حينها خرج الرئيس غاضبا من غرفته وأخذ يسب الجميع لهذا الإزعاج المتواصل وقد أيقن أن جهاز الإنذار به عطل ولا وجود لمتسللين. وهذا ما أيقنه الحراس وقائدهم لأنهم لم يجدوا أحد في كل مرة قاموا بها بالبحث، ومع هذا فتشوا القصر للمرة الثالثة ولكن لم يجرؤوا على تفتيش حجرة ليلى واكتفوا بباقي الحجرات والحديقة قبل أن يستجيب قائد الحرس لأمر الرئيس ويغلق جهاز الإنذار مؤقتا حتى يأتي المهندس المسؤول في الصباح لإصلاحه.

تبادل حسان وعادل وليلى التهنئة على هذا النجاح المبهر لهذا الجزء من المهمة عن طريق رفع أيديهم لأعلى وتلامس أيديهم ببهجة. وقال حسان وهو ينظر إلى ليلى بإعجاب:

- كيف جاءتك تلك الفكرة العبقرية؟

قالت وهي تهز كتفيها ببساطة:

- شاهدتها في فيلم أمريكي قديم. ولكن البطل ورفيقته كانا ينويان سرقة متحف.

قال عادل بدهشة:

- وأين كانا يختفيان بعد كل مرة أطلقا فيها الإنذار؟!

- في المكان الذي اختفيا فيه طوال النهار وحتى موعد اغلاق المتحف، في غرفة المكانس وأدوات التنظيف الصغيرة.

قال عادل وهو يضحك:

- لا بد أن أهتم بمشاهدة تلك الأفلام القديمة فهي مُلهمة بشكل رائع.

ضحكا معه بصوت خافت ثم بدئوا الجزء الثاني من الخطة.

اخرجت ليلى من صوان الملابس حقيبة صغيرة فتحتها وأخرجت منها أربعة قنابل صغيرة، وأعطت لكل منهما اثنتان. تقدمتهما ليلى لتتأكد من خلو الطريق ثم هبطوا جميعا الدرج. ساروا حتى وصلوا إلى الجناح الذي به غرفة المكتب. وهو جناح يضم غرفة مكتب الرئيس ملحق به غرفة اجتماعات، وغرفة مغلقة دائما لا يدخلها أحد وهي كانت هدفهم.

وقفت ليلى على باب غرفة الجناح تراقب خارجه في الوقت الذي كان عادل وحسان يحاولان معالجة مزلاج تلك الغرفة الغامضة. وحين لم يستطيعا وضع حسان أحد القنابل التي في يديه وألصقها بمزلاج الباب ونزع فتيلها، وأشار لهما ليحتميا من الانفجار.

هذا النوع من القنابل يسبب ضررا محدودا ومكتوم الصوت. اغلقت ليلى باب المكتب واحتميت خلف أحد المقاعد وكذلك فعل عادل وحسان وانفجرت القنبلة مسببة كسرا صغيرا حول المزلاج وبصوت خافت. فهرعوا نحو الغرفة بعد أن وضعت ليلى مقعدا يعوق أي محاولة لفتح باب الجناح الموجودين فيه. لم يشعر أحد بما فعلوه، فالجميع كان مرهقا جدًا من تلك الليلة المُضنية في البحث عن المتسلل الوهمي. واغلاق أجهزة الإنذار كلها منحهم ما يريدونه من حرية الحركة. حين أصبحوا بداخل الغرفة رأوا خزينة ضخمة جدًا. هرعوا نحوها ووضعوا قنبلتين حول رتاجها ونزعوا فتيلهما وابتعدوا. وحدث انفجاران مكتومان وانفتحت الخزينة..

لم تكن خزينة عادية تحتوي نقود وذهب فقط، بل كانت تحوي ما هو أهم بالنسبة لهم. كانت تحوي جهازًا كهرومغناطيسي متقدم جدا، هذا الاختراع المدهش استحوذ عليه الرئيس ليكن وسيلته في الاختفاء إن حدثت ثورة أو

قلاقل بأي صورة. هذا الجهاز يقوم بعمل مجال كهرومغناطيسي يخفي من بداخل مجاله بشكل كامل مهما حاولت أجهزة الرصد كشفه أو المجسات. ويستطيع أن يخفي قصرًا بأكمله عن العيون. علمت ليلى بوجوده من أبيها حينما تحدث عنه مع أمها ذات مرة، حيث أبدت خوفها من حدوث ثورة بسبب الضرائب الباهظة ورحلات الخصوبة. فأخبرها إن حدث هذا فإنهم لا يستطيعون قتله لأنهم حينها لن يجدوه ولن يجدوا حتى قصره. الجهاز شكله يبدو صغيرا نسبيا، فهو في حجم حقيبة سفر صغيرة، سداسي الشكل وفي كل رأس منه فوهة صغيرة، وفي منتصفه زر تشغيل وساعة توقيت.

حملت ليلى كنزها الثمين وأمرت عادل وحسان بأن يحملا ما يستطيعان حمله من النقود والذهب. وفعلا ما أمرتهم به وقبل أن يتجها للخروج لمحت ليلى صندوق في أسفل رف في الخزينة. فوضعت الجهاز الكهرومغناطيسي على الأرض ومدت يدها نحو الصندوق واخرجته وفتحته لترى ما بداخله. كان بداخله بضعة أوراق بداخل ملف! وقبل أن تتصفحها سمعت حسان يقول:

- هيا يا ليلى الشمس ستشرق الآن وسيمتلئ القصر بالحركة.

أخذت ليلى الملف من داخل الصندوق وأغلقته وأعادته مكانه، واحتفظت بالملف داخل حزام بنطالها ثم انحنت وحملت غنيمتها وقالت:

- فلنعود لغرفتي.

وبدأت المسيرة في حذر وهدوء حتى وصلوا إلى غرفة ليلى وأحكموا اغلاق الباب وجلسوا ليستردوا أنفاسهم.

كانت الساعات التالية مليئة بلحظات الخطر والترقب. فالسرقة تم اكتشافها مع شروق الشمس والحرس انتشروا في كل ركن من القصر داخله وحوله والرئيس في غاية العصبية والغضب والتوتر ولم يتوقف عن تعنيف طقم حراسته ووعيده لهم. انتظر عادل وحسان حتى بدء الجنود في تفتيش الطابق الذي توجد فيه غرفة ليلى وكانا قد تنكرا في ملابس تماثلهم كانت قد اعددتها لهما ليلى وكانت تخفيها أسفل مرتبة السرير. وحين تيقنت من صعود الحرس الدرج واتجاههم نحو غرفتها خرجت فورا ووقفت أمام غرفتها وخرج عادل وحسان بزي الجند ووقفا يتظاهران بالحديث مع ليلى وكأنهما انتهيا حالا من تفتيش غرفتها، ثم سارا إلي الأمام وكأنهم سيفتشان الغرفة التالية. فلم يشك فيهما الحرس. سار عادل وحسان حتى هبطا الدرج من جانبه الآخر واختلطا بباقي الحرس الذين

يملؤون القصر والتزموا بالسير في ثبات وثقة حتى خرجوا إلى حديقة القصر ومن ثم خارجه.

عادت ليلى إلى غرفتها ورقدت على فراشها في سعادة بعد أن اتصل بها حسان واخبرها بعبورهما في سلام.

اجتمعوا في اليوم التالي في مقرهم الجديد، كان بيتا من طابقين في منطقة منعزلة تلفه حديقة مهملة ذات سور عالٍ.

جلسوا جميعا كفرسان المائدة المستديرة على طاولة ضخمة في منتصف القاعة الرئيسية. كانوا احدى عشر شخصًا، ستة رجال وأربعة فتيات ومعهن سارة.

بدأ رؤوف السؤال:

- لماذا بدلنا مقر الاجتماع ولمن هذا البيت؟!

أجابته سارة:

- هذا بيت الدكتور خالد، كان يعيش فيه قبل اعتقاله وإيداعه المصحة، وهو الذي اقترح تغييرنا للمقر تحسبا لأي مراقبة.

- ومن هو الدكتور خالد؟

- هو مرشدنا في تلك المغامرة. وأتذكر أنني حدثتكم عن المصحة ومن فيها من قبل.

قال عصام ليبدأ الحوار الهام:

- ما هي خطوتنا القادمة؟

سارعت ليلى بالإجابة:

- قنص الرئيس.

حدق الجميع فيها للحظات وكأنهم يحاولون التأكد من عبارتها واستيعابها.

ابتسمت وهي تقول:

- مجرد إصابة لنتحرك بحُرية أكبر وأمان، سأفهمكم.

ومالت إلى الأمام واكملت بجدية:

- أستاذي اخترع رصاصة رائعة. تبدو كرصاصة حقيقية في دخولها ولكنها تدخل الجسم وتسبب أضرارا بسيطة و تفرز مادة تتسرب لخلايا الجسم لأنها تسير مع الدم وتسبب شلل كلي. حتى اللسان يعجز عن الكلام.

قال عصام وعلامات الحيرة على وجهه:

- وما الهدف من إصابته بشلل كلي؟

وتبعه حسان بصوت عال:

- نعم ما الهدف؟ إن كان الهدف التخلص منه فلنقتله.

نظرت إليه سارة وأجابته:

- ما الفائدة من قتل رئيس ليأتي بعده رئيس مثله؟ نحن نريد تغيير النظام، بل تغيير المجتمع كله.

سألها عادل باهتمام:

- ولكن ما المغزى والهدف من إصابته بالشلل؟!

- الهدف هو إصابة كل أجهزة الدولة بالشلل. إصابة الرئيس المفاجئة ستجعلهم يتخبطون، هو كأي ديكتاتور جعل حكمه مركزيا. هو الرأس التي إن توقفت توقف الجسد كله. ولكن لمنعهم من اختيار بديل في ذلك التوقيت الهام يجب أن يظل على قيد الحياة ولكن بلا حياة.

وجه عصام سؤاله نحو ليلى وهو ينظر إليها نظرة ذات مغزى:

- هل ستصيبين والدك بالشلل؟!

نظرت إليه لحظة ثم أجابته:

- هو الآن الدكتاتور الذي نريد إسقاطه، كما أنه لن يكون شللا دائما، تأثير تلك المادة يظل في الجسد اثنان وسبعون ساعة فقط. ولكنها كفيلة بإنجاح خطتنا. لاحظوا أنني أعيش في القصر، مرض الرئيس سيمنحني حرية أكبر وأمان. فهو ذكي جدا وأخشى أن يبدأ في الشك في وتكثيف المراقبة عليَ.

تنهد أحمد وقال:

- حتى الآن لا أستوعب حقيقة انقلابك على أبيكِ والتآمر ضده، وطبعًا لكلٍ منّا أسبابه. لكننا نريد أن نعرف ماذا سيكون مصيره بعد نجاح ثورتنا؟ ما تخطيطك بشأنه؟

- محاكمة عادلة طبعًا.

هزوا رؤوسهم متفهمين لهذا، وقال رؤوف:

- بما أنني من سيقوم بإصابته كما اخبرتني سابقا أريد أن أعرف كيف سيحدث هذا؟!

اتجهت ليلى إليه بالحديث:

- يوجد مبنى مواجه للقصر، هو عمارة شاهقة على بعد ثلاثة كيلو مترات منه. في التوقيت المحدد سيكون الرئيس في شرفتي وعليك قنصه حينها.

- شُرفة غرفتك؟!

- نعم، سأستدرجه إلى غرفتي.

ثم استطردت:

- الأيام القادمة هامة جدا ومحورية، وعليكم عدم مغادرة هذا البيت أو التصرف إلا حسب ما تستلزمه الخطة ومهمة كل واحد منكم.

عصام:

- وماذا عن الجنود الذين سنقوم باختطافهم؟

سارعت سارة بالرد:

- لم يوافق دكتور خالد على تلك الفكرة، اختطاف ثلاثة جنود أمر شديد الخطورة على عمليتنا لو فشلتم. وهو اقترح أن تكونوا ضمن الطاقم الطبي.

عاد عصام بظهره إلى الوراء في مقعده وقال وهو يرمق ليلى بغيظ:

- هذا ما اقترحته سابقًا ولكن الزعيمة رفضت الفكرة.

ابتسمت ليلى:

- جميل هذا اللقب يا عزيزي، وبرغم السخرية التي تسيل منه إلا أنني لن أرفضه.

لا يعرف عصام لماذا يتحمل هذا الكائن المستفز! حقا لا يعرف! لم يرد عليها ووجه كلامه إلى سارة:

- وكيف سنلتحق بطاقمك الطبي؟

- اعددنا كل شيء، وأوراقكم جاهزة. ثلاثة من الطاقم أصيبوا في حادث، فطُلب مني استبدالهم، فاخترتكم.

قالت هذا وابتسمت، فابتسم عصام لابتسامتها ونسيَ أن يسأل السؤال المتوقع، فسأله أحمد:

- ما هي الحادثة؟!

- تعرضوا لكمية كبيرة من غاز "آيزوفلوران" المُسرب من أحد الأجهزة في المشفى فتسبب في سقوطهم في غيبوبة، اطمئنوا سيكونون بخير وسيستيقظون بعد أيام فكل شيء تم حسابه.

سأل حسان متعجبًا:

- من يخطط لكل هذا؟! دكتور خالد؟

أومأت سارة برأسها علامة الإيجاب.

- يا له من رجل! هل ممكن أن نقابله؟

- ليس الآن، ولكن بالتأكيد هذا سيحدث قريبا.

نظر حسان إلى الفتيات المرافقات لهم في الاجتماع ووجه إليهم كلامه:

- لماذا لا تتحدثن! أليس لكن رأي أو استفسار؟ لماذا أنتن صامتات دائما؟!

أجابته ليلى بحدة:

- ولماذا لا تهتم أنت بما عليك فقط؟ هن يعلمن ما عليهن ويقمن به في هدوء وبلا ضجيج، لسن مثلكم.

- ماذا يعني هذا؟! هل نحن مثيرون للضجيج؟!

- في الحقيقة نعم، تسألون كثيرًا ونقضي ساعات في إفهامكم المطلوب منكم ولا تقومون به دون جدال ومناقشة، وهذا مزعج جدًا ومعرقل أيضًا.

جاءها صوت عصام غاضبًا:

- مهلا.. من قال لكِ أننا عبيد لكُن وعلينا أن ننفذ الأوامر فقط دون مناقشة؟!

سارعت سارة بإجابته لتهدأ الموقف بعد أن لمحت ليلى وهي تتحفز برد من ردودها القاسية:

- لم يقل أحد هذا يا عصام، نحن كلنا في قارب واحد ليس بيننا سيد أو عبد، ولكن لكل منّا دوره، وليلى لا تقصد هذا المعنى. أتمنى أن نتعاون جميعا في هدوء وأن نتبادل الثقة والاحترام لنعبر كلنا بسلام.

كانت كلمات سارة بصوتها الهادئ نسيم سلام للجميع، فهدأت نفوسهم. فقالت ميرو فجأة:

- ما رأيكم بما أننا سنمكث في هذا البيت عدة أيام أن نبدأ في تنظيفه؟

نظر إليها عصام وجماعته بدهشة وحسرة في آن واحد! "هل حقا سيقومون بأعمال نظافة"! تبًا لهذه الثورة المرهقة من كل النواحي.

ابتسمت سارة واستأذنت لتعود إلى بيتها ورافقتها ليلى لتعود لقصرها وقسم الآخرون أنفسهم ما بين التنظيف وإصلاح النوافذ والطبخ.

جلست سارة في السيارة وظلت صامتة وهي تتأمل الطريق وليلى تقود بهدوء في اتجاه بيت سارة.

ثم التفتت إليها:

- يجب أن تغيري من أسلوبك في الكلام معهم، قد يحدث تمرد منهم نتيجة أسلوبك هذا.

أجابتها ليلى باستخفاف وهي تهز كتفيها:

- هذا ما يستحقونه.

- لا يا عزيزتي، لن ننجح وهذا الجو المشحون يخيم علينا كلنا، لا بد أن نتعامل كفريق واحد. وليس كمجموعة أطفال في لعبة حرب.

نظرت إليها ليلى بطرف عينيها وقالت بضيق:

- لست طفلة، وأنتِ تعلمين هذا.

- نعم وأعلم أنكِ ذكية جدًا وستتصرفين بنضج عندما يحتدم الأمر، ولكن أريدك فقط أن تحسني من أسلوبك معهم. لا تنسي أنهم رجال ويتلقون الأوامر من فتاة لأول مرة في حياتهم.

- كل شيء يجب أن يتغير يا سارة، كل شيء.

تنهدت سارة وأراحت ظهرها للوراء وصمتت..

وصلا إلى بيتها فترجلت من السيارة، ثم أشارت إلى ليلى مودعة، فأومأت لها برأسها بابتسامة خفيفة وانطلقت فورًا. وقفت سارة لحظة تنظر إلى سيارة ليلى وهي تبتعد، ثم التفتت ودخلت إلى بيتها، استقلت المصعد وصعدت إلى الدور الرابع حيث تسكن مع شقيقتها الصغرى ووالدها المريض. لم تكن يوما على وفاق مع أبيها ولكنها كانت تحب أختها كثيرًا، الفرق بينهما في العمر سبعة أعوام، ولكن سارة تشعر أن "مي" ابنتها وليست أختها، حتى أنها تدللها دومًا وتشتري لها الشوكولاتة، وتمنحها لها مع ابتسامة حانية فتشتعل نظرة الفرح في عين مي، تبدو طفلة بالفعل وهي تحتوي الحلوى بين يديها ثم تعانق سارة في حب. موت أمهما وهما صغار جعلهما مرتبطتان ببعضهما، وصارت علاقتهما بمرور السنين تزداد قوة وتمحورت إلى علاقة أم بابنتها. وكانت سارة سعيدة جدًا بهذا الدور..

- وها قد عادت طبيبتنا الرائعة.

هتفت "مي" بتلك العبارة في مرح مع حركة مسرحية بيدها تعبيرا عن ابتهاجها بعودة شقيقتها. ابتسمت سارة لهذا الاستقبال اللطيف من أختها، وقالت وهي تغمز بعينيها:

- لا توجد شوكولاتة اليوم، فلا داع لهذا الاستقبال الحافل.

ظهرت نظرة حزن مصطنعة في عين مي وهي تقول:

- حقًا؟!
- نعم حقًا، لم يتسنَ لي الوقت كما أنكِ أصبحتِ مدمنة لها ولهذا يجب تقليل جرعتها لكِ؛ مرة واحدة في الأسبوع تكفي.

شهقت مي في صدمة ووضعت يدها على فمها ثم هتفت غاضبة:

- هذه قسوة منكِ غير مبررة.

ثم أردفت وهي تقول بخبث:

- لن يطاوعك قلبك على تنفيذ هذا القانون. أعلم ذلك.

مطت سارة شفتيها قائلة:

- سنرى.

سمعا صوت أبيهما وهو ينادي، فسارعت إليه مي، واتجهت سارة إلى غرفتها دون أن تفكر في العروج إليه، فلا يحتمل ذهنها

الآن أي جدال أو ضغط، بدلت ملابسها واغتسلت ثم رقدت في فراشها ورأسها يضج بأفكار شتى..

****

وقف حسام على الطاولة وهو يحمل المنفضة في يده لتنظيف الثريا، وسمع سالي وهي تقول له:

- احذر فالطاولة تبدو أحد أرجلها مكسورة.

فرد مازحا:

- لا تخشي علي، لو انهارت الطاولة فسأتعلق بالثريا واقفز كطرزان.

ضحكت لدعابته واكملت عملها في تنظيف الأرائك.

كان الجميع يعمل بهمة ونشاط، بعضهم كان يريد أن يعيش في مكان نظيف حقا وبعضهم كان يريد أن ينتهي سريعا ليستريح. اختلف الهدف ولكن توافقت السُبل فحصلوا على نتيجة باهرة.

وقفوا جميعا في بهو البيت يتأملون عملهم بفخر وراحة.

كان يوم شاق ولكن نهايته كانت مبهجة.

وتكاملت بهجتهم بهذا الطعام الساخن اللذيذ ورائحته الشهية الذي حملنه الفتيات إلى المائدة.

وجلسوا يأكلون وهم يتحدثون في راحة وأُلفة..

سأل عصام ميرو:

- أين كنتن تعشن طوال الفترة الماضية ومنذ هروبكن؟

- نظرت ميرو إليه ثم إلى الفتيات وأجابت:

- اعتذر جدًا، لا أستطيع اخبارك.

- لِمَ؟!

- لأننا ربما نضطر إلى العودة والاختباء فيه إن تأزمت الأمور، ولهذا يجب أن يظل سرا.

أومأ عصام برأسه متفهما وعاد لتناول طعامه وهو صامت ويفكر..

فقال حسان بمرح:

- ما رأيكم بعد الطعام نلعب.

نظروا إليه باسمين وقالت صوفيا:

- نلعب ماذا ونحن في غاية الارهاق!

أجابها بخبث:

- أرأيتن فرق القوة بيننا؟ لا تبحثن عن الزعامة إذًا. نظل دائما الأقوى؛ القادرون على اللعب بعد العمل الشاق.

فسارعت سالي قائلة:

- حسنا أيها القوي، عليك بغسل الأطباق بعد الغداء طالما بقيت في ذراعيك قوة. فنحن نعلن ضعفنا واستسلامنا وسنتجه للنوم وعليكم إكمال العمل.

نظر عصام والباقين بغيظ إلى حسان لهذه الورطة التي وضعهم فيها وأغمض عينيه هو في ألم وحزن، وضحكت الفتيات في مرح.

****

كان اليوم التالي مريحا للجميع، فالعمل الشاق انتهى والبيت نظيف والروح المعنوية عالية.

بعد الظهر وصلت ليلى وهي تحمل في يدها حقيبة. وضعتها على المائدة وهي تقول مازحة:

- هلموا يا قوم، جئتكم بغنيمة.

التفوا حولها فضولا لمعرفة الغنيمة! ففتحت الحقيبة وظهر الجهاز الذي أخذته من خزينة والدها.

لم يكن أحد يعرف فائدته ولا حتى حسان وعادل برغم اشتراكهما في سرقته.

شرحت لهم ليلى وظيفته وسألوها عن فائدته بالنسبة لهم فأجابتهم:

- هو وسيلتنا لإخفاء الفتيات. لن نستطيع نقلهن ولا الدخول مع حراسهن في معركة، لهذا سنخفيهم جميعا عن العيون ثم نعلن أنه تم اختطافهن وقتلهن.

قال عصام ببطء وهو يفكر:

- وماذا لو حاول الحراس الخروج من هذا المجال الكهرومغناطيسي؟

- لن يستطيعوا هذا إلا بإغلاق الجهاز والذي سيكون في حوزتكم أنتم بداخل المجال. فهو يصنع المجال حوله، ويمتد لعدة كيلو مترات في شكل

دائري ويؤثر على كل أجهزة الاتصال. وفي نهاية مجاله جدار كهربي من يحاول لمسه سيصاب بصدمة كهربية قوية. الحل الوحيد هو اغلاق الجهاز. ولهذا لا يجب أن يعلم بوجوده أحد غيركم ولا تسمحوا بأي من كان أن يصل إليه، حتى سارة.

هتف عصام بدهشة:

- حتى سارة؟!

- نعم، فالجهاز مسؤوليتكم أنتم وتشغيله مهمتكم. على كل واحد منا أن يلتزم بالجزء الذي يخصه فقط لتنجح المهمة.

- ومتى سنغلقه لنخرج؟

- عندما تنجح الثورة طبعا.

- وكيف سنعرف بنجاحها ونحن في مجال كهرومغناطيسي يحجبنا عن كل شيء؟!

نظرت إليه ليلى وبدت عليها الحيرة! نعم كيف؟! هذا السؤال لم تسأله للدكتور خالد عندما كانوا يضعون تلك الخطة، حتى سارة لم تسأله!

كان الجميع ينظرون إليها في انتظار إجابة، ولم تكن لدى ليلى إجابة!

تنحنحت وقالت وهي مبتسمة:

- ليست مشكلة سنجد طريقة ما. اخبروني ماذا اعددتم للغداء؟

قالت ميرو ببهجة:

- صنعنا بالأمس وليمة من السباجتي والدجاج، ولحسن الحظ...

أردفت بأسى:

- لم يبق منها شيئا لهذا سنتضور جوعا اليوم.

ضحك الجميع على مسرحيتها الصغيرة هذه. ثم قال عصام:

- لا يهم سأطلب طعاما من مطعمي المفضل.

واخرج هاتفه من جيبه ولكن ليلى هتفت:

- لا يا عصام، لا نريد أن يعرف أحد مكاننا هذا. فليذهب أحدكم ليأتي لنا بطعام، وأيضا بعض المعلبات والمأكولات للأيام القادمة. كان لابد ألا تأكلوا كل ما احضرتموه بالأمس أيها النهمون.

فوضع حسان يده على بطنه وهو يتألم بطريقة مسرحية:

- آه، أشعة الحسد بدأت في العمل، سنموت جميعا.

لكزه أحمد في جنبهِ مازحا:

- توقف عن التمثيل لا يوجد مخرجون مسرحيون هنا ليكتشفوك.

فنظر هو إلى ليلى وسأل بصوت ذا معنى:

- حقًا لا يوجد من يكتشفني هنا؟

لاحظ الجميع هذا ولم يرد أي منهم على سؤاله! وانتظروا أن تجيب ليلى، فلقد شعروا أن السؤال موجه إليها بشكل ما!

وليلى كانت في تلك اللحظة تفكر في معنى عبارته ثم أخذتها نظرته إلى منطقة داخلها لم تكن تعرف بوجودها من قبل..

- هيا هيا لا تضيعوا الوقت، فهو أثمن ما نملكه الآن.

قال عصام هذا فأنهي تلك اللحظة غير المفهومة لليلى وأعاد لها انتباهها. وتحرك الجميع بالفعل.

خرج رؤوف وعادل لشراء الطعام وجلس الباقون يتحدثون ومر الوقت ما بين حديث جاد وفكاهة حتى سمعوا طرقا على الباب وكانت القادمة سارة، انضمت إليهم في حديثهم ثم جاء الطعام. كانت لحظة جليلة كما اسمتها ميرو مازحة.

بعد الغداء جلسوا يتدارسون دور كل منهم في المرحلة القادمة ولم يسألوا إلا بقدر ما يلزمهم لأداء هذا الدور، فلقد تعلموا أن ليلى لن تخبرهم أي تفاصيل زائدة.

ثم اتجه الحوار اتجاه آخر حين قال عادل:

- ماذا سيحدث لنا بعد نجاح ثورتنا؟

نظرت إليه ليلى:

- ماذا تقصد؟!

- أقصد، ما وضعنا في الدولة الجديدة بعد سقوط النظام؟ هذه الدولة من صنعنا أليس كذلك؟ يجب أن ندبرها نحن حتى لا يقفز غيرنا على عرشها فنعود لنقطة الصفر.

أجابه رؤوف وهو يومئ برأسه علامة الموافقة:

- نعم، معروف في التاريخ كله أن بعد الثورات يقفز على السلطة من لم يقم بها. "فالثورة يخطط لها الأذكياء وينفذها الأغبياء ويستفيد منها الخبثاء"

نظرت ميرو إليه بدهشة وقالت:

- هل حقًا يقولون هذا؟! هل نحن أغبياء؟

ابتسموا لعلامات البله التي ارتسمت على وجهها فأجابها رؤوف:

- لا، ليست المقولة هكذا، بل" الثورة يخطط لها الأذكياء وينفذها الشجعان ويقطف ثمارها الجبناء" ولكنني رأيت مقولتي أفضل وأكثر واقعية، فكما تعلمين فأنا حكيم الثورة.

قال هذا وابتسم بغرور فضحك الجميع.. وأنهت ليلى تلك اللحظة بجدية:

- دعونا من هذا المزاح ولنترك ما بعد الثورة إلى ما بعدها، فلا نعرف من سيبقى منا إلى النهاية.

أيقظت عبارتها هذه مخاوفهم ونبهتهم إلى نسبة الفشل وأن نسبة التضحية قد تكون كبيرة.

- هل تفكرون في ما بعد الموت؟

كان هذا السؤال المفاجئ من سالي. فكان أول من أجابها هو عادل:

- لا شيء بعد الموت، سننتهي كما بدأنا.. لا شيء.

- فلماذا إذًا نفعل ما نفعله؟!

أجابتها سارة:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أننا لو حقا سننتهي إلى لا شيء في النهاية فلماذا نحارب من أجل تلك الحياة التي لا هدف لها؟

- لأننا نستحق حياة تليق بنا كبشر.

- وما معنى أن نكون بشر؟ أقصد ما قيمة أن نكون مختلفين في تلك الحياة عن باقي الكائنات ونستحق حياة أفضل طالما أن نهايتنا ونهايتهم واحدة؟

قال رؤوف بتوتر:

- ماذا دهاكِ؟! ما هذه المقارنة غير المنطقية! نحن أصحاب العقول، تميزنا نتج عن هذا العقل الذي يستحق حياة تليق به. لا يصح أن نعيش كالحيوانات ونترك غيرنا يسوقنا دون مقاومة.

- ومن منحنا هذا العقل؟

أجابها عادل باستخفاف:

- عملية تطورية.

- ولماذا تطورنا لا يتجاوز الموت؟ لماذا لم نهزمه حتى الآن؟ ولماذا نموت مثل أتفه كائن على هذه الأرض؟

أحمد: أظن المشكلة تكمن في أنكم تجادلون في بديهيات، والجدال في البديهيات يؤدي إلى ترهات. فلتفكروا في الله كخالق ومدبر للأمر فينتهي جدالكم وكل الإشكاليات تنتهي. يُصبح كل شيء معقولا حين نؤمن بالله.

عصام: عندما تختلف القناعات تتغير الأسئلة وزوايا الرؤى، لا تحاول إقناعهم بإيمانك يا صديقي، هذا يحتاج إلى وقت طويل وجدال قد يجعلنا نخسر روح الفريق التي نعمل بها وتحركنا.

نظرت سارة إليه بإعجاب، فهمت في تلك اللحظة لماذا يصلح عصام أن يكون زعيما. ولكنها كانت تريد أن تتعرف عليه أكثر وعلى قناعاته فسألته:

- هل رأيك مثل أحمد؟

- نعم سارة، أنا أؤمن بالله. ولكني طوال حياتي كنت أسير ونوره خلفي وليس أمامي. ربما حان الوقت لأن التفت إليه وأسير نحوه، فلا أؤمن أن نهايتنا هي العدم. هناك حياة أخرى أفضل تنتظرنا.

ضحكت ليلى:

- نعم حياة رائعة في الجحيم. لو حقًا تؤمن بهذا فليكن في حسبانك أنك من أهل النار، فأنت لم تفعل للجنة الموعودة شيئا.

حسان مازحا:

- هل أصبحتِ داعية الآن وتحاولين هدايتنا؟

ردت ليلى بسخرية:

- نعم فالجحيم سيمتلئ ولن نجد مكانا فيه ولا أحب الزحام، لهذا فالجنة خيارا جيدا لأنها أرحب وأكثر هدوءً.

أجابها وهو يغمز بعينيه:

- لن يسمحوا بمتسللين ولن تستطيعي رشوتهم.

قالت له بخبث:

- يبدو أنك تريدني معك في الجحيم، حسنًا قد يكون الجحيم خياري الثاني.

فأجابها بنبرة خاصة:

- لن يكون جحيمًا حينها.

وللمرة الثانية تجد ليلى نفسها في ذات المكان البعيد ذي المشاعر الغريبة..

لاحظت سارة هذا فابتسمت وقالت بهدوء:

- الجحيم الحقيقي هو أن تكون وحدك حتى ولو كنت في الجنة.

- وفي الحياة أيضًا.

قال رؤوف هذا وهو يتنهد.

فالتفت سارة إليه وسألته:

- أليس لك عائلة؟

- ولدت دون أب، أقصد أنني لا أعرف من أبي. في السابق كان الناس يخجلون من أن يقولوا هذا، ولكن الآن هذا أمرا شائعا لهذا أقوله ببساطة. أمي توفيت منذ عامين وليس لي إخوة، ولا زوجة، هذا يجعلني وحيد تماما، أليس كذلك؟

تنهدت سالي قائلة:

- يتفكك المجتمع حين يتمسك بأنانيته وتتحكم فيه غرائزه؛ ربما لأبيك عدة أبناء من أخريات وأنت لا تعلم.

- لا فرق، الكثير من الأسر الآن يعيشون معًا كالغرباء.

سمعوا صوت أحمد عميقًا:

- الحرية بلا حدود أخلاقية مقبرة للإنسانية.

صفقت ليلى بطريقة مسرحية هاتفة:

- هائل، عظيم، رائع، لم أكن أعلم أن بيننا فيلسوف.

نظر إليها أحمد بغضب مكتوم:

- ولم أكن أعرف أن بيننا طبل أجوف.

عقدت حاجبيها في غضب:

- احذر مما تقوله، لن أقبل إهانة من أحد منكم. هل هذا واضح؟

نظر الجميع إليها بضيق وقال عصام بهدوء وهو يركز في عينيها:

- الآن تتحدثين كابنة دكتاتور حقا.

- ابنة الدكتاتور هذه هي التي تقود ثورتكم نحوه، هي من وضعت أقدامكم على بداية طريق كنتم لا تعرفون كيف السير فيه. أهدرتم وقتًا طويلا في

الكلام والسفسطة ولم تحققوا شيئا حتى أن أمن والدي استهزأ بكم وتوقف عن مراقبتكم عندما رآكم جعجعة بلا طحن.

كانت إهانة قوية لهم جميعا، وكانت كافية لينهضوا في وقت واحد ويقررون الانسحاب.. اضطرب المشهد وحاولت سارة التدخل لتهدئة الموقف.

- مهلا أصدقائي، لا تجعلوا كلمات كهذه تنهي صرح عظيم نتشارك جميعا في بناءه.

أجابها رؤوف بغضب:

- ألا ترين عجرفتها واستهتارها بنا؟ لن أبقى هنا دقيقة واحدة، ومن يريد البقاء فليبق، لكن أنا لن أنتظر دقيقة واحدة بعد هذا.

واتجه إلى الباب بخطوات واسعة وتبعه حسام.

وقف عصام مترددا ومعه أحمد وحسان وعادل، فأمسكت سارة بذراع عصام في رجاء:

- أرجوك اجعلهم يعودون، لا تفسدوا كل شيء.

- هي من أفسدت كل شيء برعونتها ولسانها الزالق وتكبرها الذي لا حدود له.

- أعلم ولكن لنمنحها بعض العذر، لا تنسوا أنها تقف في مواجهة أبيها من أجلنا جميعًا.

هتفت ليلى:

- مهلا سارة، اتركيهم يرحلون، نستطيع النجاح بدونهم.

واجهتها سارة بغضب لأول مرة بانفعال:

- توقفي عن غبائك يا ليلى، لن ننجح بدونهم.

أغضبت ليلى كلمة "غبائك" لم تتوقع أن تنعتها سارة بتلك الصفة، فبدت كطفل ثائر، تمتلئ عينيه بالغضب والتمرد.

- من أنتِ لتنعتيني بالغبية؟! استطيع القائك في السجن بمكالمة واحدة. لا تنسي من أنا أيتها البائسة.

كان الموقف عبثيا بشكل لا معقول، انقلاب غير متوقع في مسار الأحداث، وشجار ليس له معنى بين أعضاء فريق المفترض فيه أنه سينقذ العالم!

شعر عصام بالرثاء نحو سارة حين لمح عينيها وقد اغرورقت بالدموع. وقبل أن يقول شيئا، خطفت سارة حقيبتها وركضت نحو الباب وخرجت منه.

هرع ورائها ولحق بها في حديقة البيت الذابلة..

امسك بذراعها من الخلف، فتوقفت والتفتت في حزن إليه..

كانت الدموع قد وجدت لها مجرى على وجنتيها، كان وجهها الباكي لوحة رائعة من الجمال الحزين. أخذته ملامحها للحظة ثم استعاد نفسه قائلا بصوت دافئ:

- هل نسيتِ كلامك لي حين خرجت غاضبا من حجرة الدكتور خالد؟ قلتِ أننا يجب أن ننسى أحزاننا الصغيرة لأننا نحمل قضية أكبر.

أراحها صوته لا تعرف كيف! فمسحت دموعها بيديها وهي تقول بابتسامة خجولة:

- لا لم أقل هذا، بل قلت: مهمتنا ذات أهداف كبيرة تتجاوز حزني وحزنك.

ابتسم لها عصام:

- تتذكرين كلماتك بشكل رائع. ذاكرتك قوية جدًا.

- نعم، ذاكرتي قوية جدًا، لا تنسىَ ولا ترحمني.

فقال لها بحنان:

- ستنسين ما يؤلمك وستتذكرين نفسك وحقها في الحياة. هذا ما علينا أن نعمل من أجله، أن نسير في الحياة أحياء.

كانت عيناه كنقطة ضوء في نهاية بئر مظلم، أو كقطب مغناطيس موجب يجذب كل أحاسيسها السلبية خارجها، ويصنع مجالا للجاذبية لم تستطع مقاومته..

أيقظهما من تلك اللحظة صوت أحمد وهو يأتي من خلف عصام:

- هل نبقى أم نرحل يا عصام؟

التفت إليه عصام:

- لا أجبرك على شيء يا أحمد، ولكن أنا سأبقى.

أومأ أحمد برأسه موافقا، ووضع يده على كتفه قائلا:

- معك حتى النهاية يا صديقي.

ابتسم له عصام في ود وربت على كتفه ممتنا لصداقته الرائعة.

ثم سأله:

- وماذا عن حسان وعادل؟

- ينتظران قرارك. نحن معك وأنت زعيمنا.

- شكرًا لكم.

سمعا صوت سارة وهي تقول بسعادة:

- أنتم حقا رائعون.

ثم أردفت:

- هيا بنا إلى الداخل لننقذ ما يمكن إنقاذه.

عادوا إلى البيت فرأوا سالي وميرو وصوفيا يجلسن مع عادل يتحدثون جميعا في جدية، ولا أثر لحسان وليلى!

وسألوا عنهما، فأخبروهم أنهما يجلسان في غرفة المكتب يتحدثان.

كان حسان قد رأى ليلى لأول مرة وعينيها مغرورقه بالدموع، لم يكن يظن أن تلك الفتاة القوية الساخرة المتمردة تستطيع أن تبكي! بعد خروج

أحمد وراء عصام، طلب من ليلى أن تصحبه لغرفة المكتب ليقول لها شيئا. لم تحب ليلى انفرادهما، وخاصة وهي في تلك الحالة ولكنه أصر وكرر طلبه فاتجهت نحو غرفة المكتب في صمت وتبعها هو.

- تفضلي اجلسي، الجلوس يجعل الحوار أكثر هدوءً.

جلست في صمت وهي تنظر أمامها وتتجنب النظر إلى وجهه، ضايقها أن يرى الدموع في عينيها، ضايقها أن يلمح أحد ضعفها الذي تحاول اخفائه خلف ستار من القسوة والسخرية.

- اسمعيني يا ليلى، أعرف أن هذا الوقت عصيب علينا كلنا ومخيف أيضًا، ما نتجه إليه مرعب لمن اعتاد على الراحة والرفاهية والأيام الخاملة. فاعذرينا لنعذرك. تفهمينا لنفهمك. لا تجلسي على عرش السلطة وتحدثيننا من أعلى. لا تلعبي دور الطاغية الذي نسعى جميعا لتحطيمه.

قالت ببرود دون أن تنظر إليه:

- أهذا ما أردت قوله؟

تجاهل برودها وأجابها بهدوء:

- لا. بل أريد أن أروي لكِ لماذا اشتركت في تلك الثورة. هل أروي؟

لانت ملامحها وأومأت برأسها علامة الموافقة ولم تتكلم.

- كنت مثل معظم شباب هذه الأيام، يعيش لنفسه، لهو ولعب ولا مبالاة بكل شيء. فكل شيء يبدو سهلا ميسورا، والدي تاجر، يبيع ويشتري من وما يريد. وأمي امرأة تعشق جمالها وأكبر قضية تشغل رأسها الجميل هي كيف تبدو أكثر جمالا. لم تنجب سواي مراعاة لهذه القضية وهدفها السامي. ونشأت مدللا، كل ما أريده مُجاب ماعدا الحب والاهتمام. لا وقت لديهما لإنفاق أي مشاعر، يكفي ما يمنحانه لي من مال. ولكني كنت بحاجة لمن ينصت لي، يطمئن عليَ من الداخل، فهو كان دائما مضطرب ولا يستقر. أفتقد شيئا لا وجود له في من حولي. فأغرقت نفسي في ملذاتها، ووجدت مثلي كثيرين، كنا نسأم دائما مما نفعله ونبحث عن الجديد، وكل جديد لا يكفينا فنبحث عن غيره، دائرة لا تنتهي من البحث ومزيد من التعاسة. لم أكن سعيدا أبدا ولا رفاقي سعداء. نكذب على أنفسنا بتلك الضحكات الفارغة والمتع المؤقتة، لكن داخلنا نفق مُظلم يزداد اتساعه وعمقه كلما حاولنا ردمه. وصل الحد بنا إلى تعذيب أنفسنا، كان اقتراحا في لحظة ملل من أحدهم، وافقنا كلنا، تعرفين أن نوادي التعذيب ليست فكرة جديدة، بدأها الفلاسفة الرواقيين. تخيلي أن يُطلق على مثل هؤلاء فلاسفة، ويُطلق على ما يقولونه ويفعلونه فلسفة! نحن من يمنح

للظلال وجود وللخيالات حقائق، وللفراغ عمق. ولم نخلق حتى الآن شيئا يستحق؛ لأننا أضعف من أن نفعل. تراودني أحيانا أفكار عن خالقنا. برغم أنني أبدو كمُنكر لوجوده، لكن بداخلي صوت يتحدث عنه باستمرار، وكلما تجاهلته علا صوته أكثر. هذا الحوار الذي دار بيننا منذ قليل عنه، والكلمات التي قيلت عن النهاية والجنة والنار، لطالما قلبت صفحاتها داخلي، وقرأت عناوين فصولها، ولكن بلا تركيز أو رغبة في التركيز، أريد الهرب من كل شيء حقيقي، فالزيف هو الحقيقة الوحيدة التي أعرفها.

في نادي التعذيب الذي ذهبنا إليه رأيت بشرا، أثرياء مال فقراء عقل وقلب وروح. موتى يستعذبون الألم. يمارسون مرضهم بعيدا عن أعين الناس ليعودوا إليهم منهكي الجسد مستسلمون لبشاعة الحياة. صنعوا لأنفسهم جحيما يحاسبون به أنفسهم ويعاقبونها بكل رضا. بداخلهم صوت كالذي بداخلي، وهم مثلي مستمرون في الانكار والهروب بالغرق أكثر. ثم اكتشفت أن هذا النادي جحيم حقيقي، فالبعض لم يعد يكفيه أن يرى جسده معذبا، وأرادوا أجساد أخرى ليعذبوها. فماراثون الرغبات لا خط نهاية له.

رأيتهم يعذبون طفلا، كان هذا أقسى ما يمكن لنفقي المظلم أن يتحمله. الصوت بداخلي أصبح أصوات وصراخ وعويل. شعرت بالغثيان، الاختناق، الرغبة في الموت تملكتني.

لسنا بشرا، لا نستحق الحياة، لأننا موتى. نعم موتى بلا هدف أو حقيقة. صوت صراخ الطفل ظل يطاردني، اعتزلت كل شيء، سجنت نفسي في غرفتي، ولكن لا مفر من هذا الجحيم الذي بداخلي. ثم قررت الانتحار. طالما كلنا سنموت في النهاية، فلماذا لا يكون الآن؟!

ارتديت ملابسي وخرجت من البيت دون أن أودع أحدا ولا حتى كتبت رسالة، ومن سيهتم؟! ركبت سيارتي وقدتها بأقصى سرعة لأرتطم بأي شيء. كنت أطارد الموت لساعات وهو يهرب مني. بدأت تتملكني نشوة غريبة وليدة فكرة مجنونة وهي أن الموت خائف مني! ضحكت بهستيريا، بالفعل في تلك اللحظة كنت كالمجنون. زائغ النظرات مختلط الأفكار منتشي بفكرتي حد الغرور. ظل الموت يهرب من أمامي ويخشى مواجهتي، فأخذت قراري بإجباره على مواجهتي، واتجهت بكل سرعتي نحو جدار مبنى شاهق، كنت أريده صداما مدويا. وقبل أن أصل إلى الجدار بعدة سنتيمترات لمحت امرأة تركض بكل قوتها لتنزع شيئا من الأرض وتلقي بنفسها بعيدا متدحرجة به وهي تحمله. في نفس اللحظة

التي كانت هي فيها أمامي تلتقط هذا الشيء ملت بمقود سيارتي لأتفاداها وكبحت الفرامل بكل قوتي فدارت السيارة وانقلبت على جانبها وزحفت عدة أمتار بهذا الوضع قبل أن تتوقف تماما.

لم أُصب بشيء! خرجت سليما من تلك الحادثة. عبرت من نافذة سيارتي المقلوبة، ووقفت للحظات أستوعب ما حدث! ثم تذكرت المرأة واتجهت إليها. فرأيتها تجلس على الأرض ولا زالت تحمل ذلك الشيء الثمين الذي كادت أن تضحي بنفسها من أجله. اقتربت أكثر لأرى ما هو!

فوجدتها قطة! تخيلي أن تغامر بحياتها من أجل قطة وأن تكون لها تلك القيمة عندها! كانت لحظة فاصلة في حياتي، فهمت لماذا أبدو خاويا هكذا وضعيفا وهشا وتائها.

لأنني ليس لي هدف أعيش من أجله، ولا حياة حقيقية أحياها ولا معنى لوجودي على هذه الأرض، ولا شيء له قيمة عندي. كان لابد أن يكون لي هدف، هذا طوق نجاتي الوحيد. الموت لم يهرب مني هذا اليوم عبثا، وتلك المرأة لم تلقِ بنفسها أمامي دون ترتيب، هناك من يخطط ويدبر لي وينتظرني..

تلفت حولي بحثا عن هدف، حتى وصلت إلى جماعة عصام عن طريق صديق لي. كلماتهم أشعلت ضوء داخلي فأضاءت النفق. لا أقول أنني الآن وصلت لبر أماني وسلامي النفسي، لكنني بالتأكيد أفضل بكثير مما كنت. انتهت كل الأصوات التي تصرخ داخلي ما عدا صوت واحد، لازال يحدثني ولم أتحدث معه بعد.

- هل تقصد أنك قد تصبح مؤمنًا؟

انتبه على صوتها، نسي أنه يتحدث إليها!

- ربما، لا أعرف بعد.

- افعل كل ما يلزم لإنقاذ نفسك، لكن لا تغرقها في وهم آخر. كل ما حولنا سخيف ومؤلم. نحن بالفعل نعيش في نادي تعذيب، جحيم صنعناه بأنفسنا، لكن لا بد أن ينتهي هذا كله.

- إذا أردتهِ أن ينتهي فلنكن فريقًا واحدًا، وليس مجموعة من الأعداء؛ عليكِ بالتعامل معنا بشكل ألطف.

ابتسمت حين قال ذلك وقالت وهي تنظر إليه:

- لو كنت لطيفة ما كنت اشتركت معكم في تلك الثورة، قسوتي هي من جعلتني أفعل.

قال في حيرة:

- قسوتك؟! ألم تفعلي هذا من أجل أولئك الفتيات أو لمحاربة الظلم وتغيير المجتمع للأفضل كما قلتِ من قبل؟!

- هذا ما تريدون أن تسمعوه فقلته.

- ماذا؟!

- ما يهمكم هو أن يتحقق هدفنا الذي اجتمعنا من اجله، لا شأن لكم بأسبابي.

تنهد حسان ونهض وهو يقول:

- حسنًا، كما تشائين ولكن يجب أن تنهي تلك الخلافات بيننا حتى لا ينفض اجتماعنا.

أومأت برأسها قائلة:

- حاضر سأفعل.

ثم أردفت باهتمام:

- جيد أن محاولتك للانتحار فشلت وأنك لم تمت في تلك الحادثة، لا تفعلها ثانية.

ابتسم في سعادة وهز رأسه موافقا.

نزعت نفسها من تلك اللحظة ونهضت وهي تقول بجدية:

- هيا بنا.

تبعها حسان في صمت حتى وصلا إلى الجمع الجالس في صالون البيت. تطلع إليهما الجميع دون كلمة فبدأت ليلى الحديث:

- اعتذر لكم جميعا، كنت مخطئة في أسلوبي، لن يتكرر هذا، اعدكم.

ثم نظرت نحو سارة وأردفت:

- أعتذر لكِ بشكل خاص سارة، حقا أعتذر.

ابتسمت سارة لها ونهضت في هدوء واتجهت نحوها وعانقتها في ود.

بعد انتهاء وقت الاعتذار جاء وقت المهمة. ماذا عن باقي الفريق الذي رحل! هذا ما تناقشوا حوله واتفقوا أن يذهب إليهما عصام ويجتمع بهما ويقنعهما بالعودة.

في اليوم التالي اجتمع بهما عصام بالفعل لكنهما اشترطا عدم العمل مع ليلى أو الاجتماع بها، وأن يكون عصام هو زعيمهم الذي يتلقوا منه الأوامر. وافق عصام وابلغ الآخرون بهذا ولم تعترض ليلى. المهم أن الخطة تسير كما هو مخطط لها.

بعد يومين، وتحديدا قبل موعد رحلة الخصوبة بيوم واحد اتصلت ليلى بأبيها، فأجابها سكرتيره بأنه مشغول، فأخبرته بأنها مريضة جدا ولابد أن تتحدث مع أبيها فورا.

بعد دقائق جاءها صوته على الهاتف:

- نعم ليلى، ما الأمر؟

- أريدك أن تأتي لغرفتي حالًا، هناك ما أود اخبارك به. لا ترفض أرجوك، فالمسألة خطيرة.

كاد يرفض برغم هذا ولكنها كررت رجائها وألحت بشكل غامض فوافق أن يذهب ولكن بعد الاجتماع. استمر الاجتماع ساعتين ثم اتجه إلى غرفة ابنته..

- ها، اخبريني ما الأمر؟!

هكذا قال الرئيس لابنته وهو يدخل غرفتها.

اغلقت ليلى الباب وراءه، وأشارت نحو الشرفة وهي تقول:

- تفضل هناك، أريد أن أريك شيئا من الشرفة.

تقدم الرئيس بخطوات ثابتة نحو الشرفة بنفاد صبر.

وحين أصبحا في الشرفة، التفت إليها وقال:

- ماذا الآن؟!

نظرت في عينيه للحظة، ثم أشارت نحو الجهة المقابلة للقصر وقالت:

- انظر هناك، في المبنى المقابل.

نظر الرئيس ولكنه لم ير شيئا لأول وهلة، ثم لمح خيالا ما على سطح المبنى المقابل، دقق النظر أكثر، ثم تراجع خطوة للوراء في جذع حينما

تبين له أنه قناص! وقبل أن يتحرك خطوة أخرى، أصابته رصاصة في صدره وسقط أرضا..

صرخت ليلى برعب، فرفع الجنود المتواجدون في الحديقة رؤوسهم فأشارت نحو المبنى المقابل.

هرع بعضهم نحو غرفة ليلى وبعضهم للحاق بهذا القناص.

كان الاضطراب هو سيد الموقف، وخبر اصابة الرئيس يسري في جنبات القصر كالنار في الهشيم.

حينما وصل الجنود إلى سطح المبنى المقابل لم يجدوا شيئا! لا القناص ولا بندقيته. ولم يسفر البحث في المبنى كله والمباني المجاورة عن شيء.

تم نقل الرئيس في طائرته الخاصة إلى مشفى مجهز وقامت ليلى بدورها كما يجب، صراخ وانهيار ثم صدمة وصمت..

صممت على مصاحبة أبيها إلى المشفى، وسمحوا لها بذلك.

كانت تريد أن تتأكد بنفسها من أن خطتهم تسير على ما يرام وفي نفس الوقت تبعد الشبهات عنها. تكتم الجميع على خبر إصابة الرئيس، خوفا

من حدوث قلاقل، وفي صباح اليوم التالي كان موعد انطلاق رحلة الخصوبة..

مرت السيارات التابعة للحكومة ببيوت الفتيات المسجل اسمائهن في الرحلة لتجميعهن. كان يوما حزينا للجميع..

نقلتهم السيارات في مشهد مهيب أشبه بموكب جنائزي إلى المطار، استعدادا لبدء الرحلة. حيث أن أول مرحلة فيها تكون بالطائرة، التي تهبط بهم في مطار خاص تم اعداده على حدود الغابة المقصودة، ثم يبدأ الجزء الثاني وهو السير على الأقدام عدة ساعات حتى الوصول إلى المكان المنشود الذي به عشبة الخصوبة.

صعد الجميع إلى الطائرة في نظام وصمت. كانت الرحلة مكونة من الفتيات وعددهن حوالي مائتي وخمسون فتاة يصحبهم عشرون جنديا وضابطين وطاقم طبي أفراده هم ثلاثة أطباء وثلاثة مساعدين وأربعة ممرضات.

لم يكن احد يبتسم في تلك الرحلة سوى المضيفات، ابتسامة روتينية من أساسيات عملهن.

في الطائرة جلس أفراد الطاقم الطبي متقاربين، كان الثلاثة المساعدين هم عصام وأحمد وحسام، جلسوا في هدوء فلم يشك فيهم أحد. سارة رتبت كل شيء واعدت الأوراق اللازمة، ولضيق الوقت لم يبحث أحد ورائهم. طالما أن الطبيبة المسؤولة هي من اختارتهم وهي محل ثقة.

كانت سارة تبث الثقة فيها في كل من يتعامل معها أو يتحدث إليها، بوجهها الهادئ وابتسامتها العذبة وثقتها في ما تقول وتفعل. برغم قتل زوجها يوم زفافها اظهرت الولاء للقتلة ولم تتمرد أو ترفض العمل معهم. وكان هذا بداية خطة الانتقام الناعمة..

بعد سفر ساعات طويلة هبطت الطائرة في مطارها المخصص. وقام الجنود بعملية تنظيم الهبوط من الطائرة وحمل الحقائب وتحديد خطة السير.

حرص عصام ورفيقيه على أن يحملوا حقائبهم بأنفسهم بحجة أن بها تجهيزات طبية هامة يجب أن تكون معهم لوقت الحاجة وتحسبا للظروف، فلم يعترض الضابط المسؤول وسمح لهم بحمل أمتعتهم بأنفسهم. كان عصام ورفيقيه قد خضعا لتنكر بسيط لأنهم كانوا مراقبين من قبل كما أخبرتهم ليلى، وللتأمين والتمويه قاموا بصبغ شعورهم وتغيير شكل

حواجبهم قليلا وحسام الذي كان الوحيد فيهم لديه شارب، قام بحلقه. مع الزي الخاص بالمساعدين أصبح شكلهم مختلفا.

الفصل السابع

أولئك المنتشون ببريق خطواتهم لن يلمحوا عربة الخطر أو يسمعوا دبيب الحقيقة.

حين لمح رؤوف الرئيس يقف في الشرفة بواسطة كاميرا قناصته بعد ثلاث ساعات انتظار مُرهقة، أخذ وضع الاستعداد وانتظر اشارة ليلى التي اتفقا عليها، وهي أنها ستشير نحوه بيديها وحينها يجب أن يضغط الزناد ويصيب الرئيس في قلبه ليبدأ مفعول الدواء المخدر للجسد في السريان مع الدم الذي يضخه القلب. وبرغم أنه كان مدربا على حمل السلاح _ بحكم أنه كان يعمل حارسا خاصا لبعض الشخصيات الهامة والقريبة من المسؤولين الكبار في الدولة، قبل أن يهينه أحدهم بسبب خطأ لم يقترفه ومن ثم طرده، بل قام أيضا بمنع توظفه في أي مكان آخر، وكان هذا هو سبب انضمام رؤوف لجماعة عصام، شعر بالظلم والقهر والغضب وقرر الانتقام..._

تردد عصام للحظة حين لمح الرئيس يتراجع في ذعر، ولكنه تمالك نفسه وأطلق الرصاصة.. وحين سقط الرئيس وقبل أن تطلق ليلى صرختها اخفض قناصته وجلس محتميا بالسور ليفككها سريعا ثم يضعها في حقيبتها ويحملها على ظهره ويركض هابطا الدرج حتى الدور الثامن إلى الشقة التي كانت ليلى قد استأجرتها منذ فترة باسم مستعار. فتحت له ميرو الباب حيث كانت تنتظره فدخل وهرع إلى الحمام. حوض الاستحمام كانت توجد فيه مادة الهيدروفلوريك المذيبة جهزتها له ميرو فوضع فيها البندقية بحقيبتها فبدأت المادة في صهر الحقيبة بمحتوياتها وأذابتها.

وأثناء ذلك بدل رؤوف ملابسه سريعا واعطى ملابسه التي كان يرتديها إلى ميرو، وهرعت هي بدورها لإذابتها مع البندقية. ثم ركضت نحو المطبخ واخرجت الطعام الذي اعدته ووضعته على المائدة وجلسوا إليها بهدوء يأكلان ببطء ويحاولان التحكم في انفعالاتهما انتظارا للحظات القادمة.

وحدث ما توقعوه، طوق الجنود العقار كله ولم يسمحوا لأحد بالخروج، ثم حين صعدوا ولم يجدوا أحدا على السطح هبطوا لتفتيش الأدوار شقة شقة، ومن ضمن الشقق التي دخلوها للتفتيش كانت شقة رؤوف وميرو. فتح لهم رؤوف متسائلا! فاقتحموا المكان دون إجابة وانتشروا يفتشون. لمحوا

الطعام على المائدة وميرو تجلس إليها وقد رسمت على وجهها علامات الخوف وتسألهم:

- ماذا حدث؟! ماذا فعلنا؟!

لم يجيبها أحد واستمروا في التفتيش فوضع رؤوف يده على كتفها لتهدئنها، كانا يتصرفان كزوجين عاديين تُفتش الشرطة بيتهما ولا يعرفان لماذا!

استغرق التفتيش دقائق معدودة قبل أن يأمر الضابط الجنود بالانتقال إلى الشقة التالية لتفتيشها.

بعد خروجهم، أغلق رؤوف الباب، واسقطت ميرو رأسها على المائدة وهي تخرج من أعماقها زفرة راحة كبيرة..

توجه رؤوف نحو الحمام ونظر في البانيو بارتياح حين رآه فارغا؛ السدادة ذات المؤقت عملت عملها وقامت بتفريغ البانيو من محتوياته قبل دخول الجنود إليه.

عاد إلى ميرو مبتسما وهو يجلس بجوارها في هدوء:

- لقد دمرنا الصرف الصحي لهذا العقار، هذا ما يجب أن نتعاقب عليه وليس قنص الرئيس.

ابتسمت ميرو لدعابته قائلة:

- أنت محق، فالصرف الصحي مفيد للناس أكثر.

ضحكا معا في راحة ثم نظر رؤوف للطعام بنهم:

- فلنأكل هذه الوليمة فنحن نستحقها.

بدءا في الأكل ثم رفع رؤوف رأسه ونظر إلى ميرو:

- أنتِ طباخة رائعة.

ابتسمت في خجل:

- شكرا لك، لا أظنه بجودة طعام والدتك.

لمحت نظرة حزن في عينيه وهو يقول:

- توفيت.. أعيش وحدي وآكل من المطاعم. كنت دائما وحيدا، حتى أصبحت معكم..

ثم أردف باهتمام:

- هل تعلمين أنني لم أعد أشعر بالوحدة؟! برغم المخاطر التي نسير فوقها وتحيط بنا إلا أنني أشعر بالراحة، فشعور الوحدة كان أقسى.

نظرت إليه في تأثر، فعيناه كانت بهما تلك النظرة التي تطل من عين طفل حزين. مدت يدها وربتت على يديه مطمئنه له أنه لن يكون وحيدا ثانية وأكدت هذا قائلة:

- لن تشعر بالوحدة ثانية، اعدك بهذا.

لم يفهم معنى هذا الوعد ولكنه اسعده كثيرا..

****

سارت رحلة الخصوبة عدة ساعات حتى شعر الجميع بالإرهاق فأشار لهم رئيس الحرس بالوقوف وأمر جنوده بإخراج الطعام والماء وتوزيعه على الجميع. جلس الباقون على الأرض بحثا عن الراحة، فالشمس كانت حارقة والطريق غير ممهد بشكل مؤلم جدًا. جلس عصام وسارة وباقي الطاقم الطبي متجاورين. وزع عليهم الطعام والمشروبات فبدأوا في

الأكل. كانوا حريصين على عدم إثارة أي شكوك لهذا لم يتهامسوا وتبادلوا كلمات عادية وقليلة تعبر عن تعبهم من الرحلة والإرهاق. والفتيات كن متحلقات في مجموعات يأكلن ويتحدثن، بعضهن يبدو عليهن الضيق والبعض متأقلم أو يحاول. وتخيل عصام أخته في رحلتها وشعر بضيق في صدره وحاول اخفاء ألمه عمن حوله.

بدأ الليل يسدل أستاره حولهم، لهذا وقف قائد المسيرة مخاطبا لهم بأنه من الأفضل أن يبيتوا تلك الليلة هنا، فهذا أفضل من السير ليلا في تلك الطرق المتعرجة والخطرة. وأشار لجنوده ليقوموا بإعداد المكان للتخييم. تحرك الجميع بناء على طلب الجنود لإتاحة مساحة لعمل المظلة الكبيرة التي سيرقد الجميع تحتها، ولعمل خيمة جانبية تُستخدم كحمام ومكان لتغيير الملابس. كان الجنود معتادين على هذا فأنجزوه في دقائق معدودة، ورقد الجميع تحت المظلة وفوق الأغطية التي فرشها الجنود.

نظر عصام حوله ثم نظر إلى رفيقيه وسارة نظرة حائرة ومتسائلة. فلم يتوقع أن يكون الجميع تحت مظلة واحدة! كان يظن أن التخييم سيكون في عدة خيم تمنحهم فرصة للاختلاء وتشغيل الجهاز. كيف سيخرج الجهاز الآن والجنود حولهم ويراقبونهم؟!

فنهض وجلس بجوار سارة، وهمس في هدوء:

- كيف سنشغل الجهاز ونحن مكشوفون هكذا؟!

أجابته بنفس الهمس دون أن تنظر إليه:

- ليس هنا، يجب أن نصل إلى مكان العشبة أولا.

نظر إليها في دهشة وقال بصوت خافت:

- ليلى قالت سنشعل الجهاز في مكان التخييم! أي هنا.

- تم تعديل الخطة ولكنها لم تجد الوقت الكافي لإخباركم. واعتمدت على وجودي معكم.

- ولكن في مكان العشبة ستكون مراقبة الجنود لنا على أشدها!

- نعم هذا صحيح، ولكن هناك خطة صغيرة لإلهائهم لا تقلق.

- ولماذا لا أعرف تلك الخطة الصغيرة الآن حتى لا أقلق؟!

- أخشى أن يسمعنا أحد كما أن همسنا الكثير هذا سيثير ريبتهم فينا. أرجو أن تثق في، اطمئن سيسير كل شيء على ما يرام.

صمت في ضيق، وشعرت سارة بهذا ولكنها لم تتكلم.

بعد دقائق بدأ الجميع في النوم تباعا، والجنود قسموا أنفسهم دوريات للمراقبة. وتمدد عصام محاولا النوم بعد أن نام رفيقيه. ولكنه لم يستطع! التفت إلى سارة وكانت مستلقية على ظهرها تحت غطاء خفيف، ولكن عينيها مفتوحة وتنظر إلى أعلى. وتساءل في نفسهِ "فيما تفكر الآن؟! في الخطة أم في زوجها؟"

حينما أشرقت الشمس أيقظ الجنود الجميع بإطلاق نفير قوي، وعصام لم ينم سوى ساعتين فقط أو أقل. ولكنه نهض معهم واستعد الجميع لإكمال الرحلة بعد تناولهم للإفطار.

وخلال سيرهم سأل عصام رفيقيه:

- هل نمتما جيدا؟

فكانت إجابتهما بالإيجاب، فمد خطواته حتى لحق بسارة وسار بجوارها وهو يسألها:

- متى سنصل؟

- قبل غروب الشمس.

- هل جئتِ لهذه الرحلة من قبل؟

- نعم ولكن ليس كطبيبة، بل كوعاء للإنجاب.

قالتها بسخرية لم يألفها منها!

- تتحدثين الآن بأسلوب ليلى.

نظرت إليه متسائلة:

- ألا تحبها؟

أجابها بلا مبالاة:

- ولماذا أحبها أو أكرهها؟ ليس مطلوبا لمهمتنا أي مشاعر. كما أنها لا تحب أحد.

- ليلى يغلف قلبها الحزن. هذا حالنا كلنا، ليست للقلوب المغلفة بالحزن نوافذ على الحياة والحب.

- هل توقفتِ عن حب زوجك؟

فاجأها سؤاله! فوقفت لحظة، ثم انتبهت واكملت السير قبل أن يلاحظ أحد، وقالت وهي تنظر أمامها في شرود:

- توقفت عن التفكير في أي شيء يجعلني ضعيفة. لا أبحث الآن عن أي إجابات لأي أسئلة، الاختبار انتهى للجميع وهذا وقت اظهار النتائج.

- تبدين مختلفة عن الأيام السابقة!

نظرت نحوه وابتسمت ابتسامتها العذبة:

- أنا الآن زعيمة عصابة فطبيعي أن أبدو كذلك.

ابتسم لمزاحها وأومأ برأسه علامة الموافقة وسار بجوارها في صمت. ولكن بعد دقائق التقت نظراتهما فابتسما مجددا..

وصلوا أخيرا بعد ساعات مرهقة أخرى. كانت عشبة الخصوبة تبدو خضراء زاهية على مدى البصر تنمو متفرقة في حقل واسع تتخلله أشجار عملاقة تصنع ظلا محببا ومرطبا لهذا الجو الحارق. جلسوا للراحة قبل البدء في الانتشار لتناول العشبة. وزع الجنود طعام قليل على الفتيات ليظللن جائعات فيأكلن العشبة دون ممانعة، والباقين تم اعطائهم وجبات كاملة. تسبب هذا في تذمر بسيط بين الفتيات انتهى حين أخبرهم القائد بأنهم سيتناولن كل ما يرغبن بعد تناولهن للعشبة.

وبعد ساعتين تقريبا أشار لهم القائد بالنهوض للانتشار داخل الحقل. تقدمت سارة وطاقمها الطبي للسير مع الفتيات ولكن أمرهم القائد بالتوقف خارج الحقل وألا يدخلوا إلا لو أصيبت احدى الفتيات أو احتاجت معونتهم.

تبادل أفراد الفريق النظرات ولكن لم يعترض أحد منهم.

كل فتاة كانت تحمل في معصمها جهازا صغيرا يشبه الساعة يحدد مكانها في الجهاز الذي يحمله القائد وكل جهاز معصمي ملحق به زر لتستعمله الفتاة في حالة تعرضها للخطر واحتياجها لمساعدة. وكان المطلوب من كل فتاه تناول خمسة عشبات. والجنود يدورون حولهم للتأكد من تناولهن لهم. ولم يتبقَ خارج الحقل سوى سارة وطاقمها وقائد الجنود وجنديين.

نظرت سارة في اتجاه عصام الذي شعر بأنها تريد أن تقول شيئا ما! فنظر نحو أحمد الذي نظر نحوه بدوره، فقام عصام بجذب رموش عينه اليسرى ثم طرف أذنه في حركة سريعة لم ينتبه لها ويفهمها سوى أحمد.

وفي الدقيقة التالية سمع الجميع صرخة أحمد الذي استلقى على الأرض وهو لا زال يصرخ ويتشنج في حالة تشبه الصرع. التف حوله عصام والطاقم الطبي وقائد الحرس والجنديين. انحنت سارة فوقه وعصام

يحاولان اسعافه وتهدئته ومنعه من عض لسانه أو أذى نفسه. وسمعت سارة عصام وهو يلتفت ويقول لقائد الحرس:

- من فضلك أؤمر بنصب الخيمة الصغيرة لأنه يحتاج إلى رعاية طبية وبعض الظل، كما يجب تغيير ملابسه فلقد تعرق بشدة وقد يصاب بالبرد.

نظر القائد نحو سارة فأكدت كلام عصام فأمر بنصب الخيمة.

تم نقل أحمد إليها وصحبته سارة وحسام وبقي باقي الطاقم الطبي مع الجنود خارجها لمراقبة الفتيات تحسبا لأي استدعاء لطلب المساعدة من احداهن.

في داخل الخيمة قالت سارة بإعجاب:

- كان تصرفكما في غاية الدهاء. كيف عرفتما أنني أريد أن تفعلوا شيئا؟!

أجابها عصام سريعا:

- من نظرتك لي؛ شعرت بأنكِ في حيرة وتريدين منا أن نتصرف بعد أن منعنا القائد من دخول الحقل مع الفتيات.

- نعم فهذا لم أكن أتوقعه. كان لابد من خلق فرصة.

- هذا ما أريد أن أعرفه، خلق فرصة لماذا؟ لتشغيل الجهاز؟

- نعم، وشيء آخر.

- ما هو؟!

التفتت سارة إلى حسام وقالت:

- هل فتحت حقيبتك؟

أجابها حسام:

- لا لم أفعل. أخبرتني ألا أفتحها إلا حين تأمريني بهذا!

- حسنا، افتحها الآن.

نظر كلا من عصام وأحمد باهتمام إلى حسام وهو يفتح حقيبته. كان بداخلها صندوق مغلق به فتحات صغيرة جدا. اخرجت سارة من حقيبتها مفتاح وأعطته لحسام وقالت له:

- هذا مفتاح الصندوق، لا تفتحه هنا. أريدك أن تتسلل داخل الحقل وتفتحه وتطلق ما فيه. ثم استدارت نحو أحمد وقالت:

- حقيبتك أيضا يا أحمد ستكون مع حسام ليطلق ما فيها في الحقل. لأنك الآن مريض وقد يأتي القائد أو أحد الجنود للسؤال عنك. فلا بد ألا تغادر هذه الخيمة. وبهذه المناسبة اخبروني كيف اتفقتما على هذا المشهد؟!

اعتدل أحمد جالسا:

- هذه حركة كنا قد اتفقنا عليها عندما أردت منذ فترة التخلص من إحدى الفتيات. كانت فكرة عصام. اعطيتها موعدا، وجلس عصام بعيدا عني قليلا، واتفقنا عندما يلمح الفتاة قادمة يقوم بحركة جذب رمشه وأذنه فأتظاهر بإصابتي بالصرع.

ابتسمت سارة وهي تنظر لعصام الذي نظر إلى الأرض خجلا وقالت:

- خطة ذكية فهل نجحت وهجرتك الفتاة؟

نظر أحمد إلى عصام وقال وهو يضحك:

- نعم، تركتني وأصبحت صديقة لعصام.

ضحكت سارة ولكنها قطعت ضحكتها سريعا حين قال حسام بقلق:

- هذه الحقيبة بها شيء يتحرك!

التفتت إليه سارة وقد تذكرت المهمة:

- نعم حسام، نسيت أن أقول أن بها فئران.

نظروا بدهشة إليها وقالوا في صوت واحد:

- فئران؟!!

- نعم، هذه الفئران التي في حقيبة حسام وأحمد معدلة بيولوجيا. زرعنا في جيناتها شفرة لتسميم الأرض. تعرفون أن الفئران تتكاثر بشكل سريع وكبير. ثلاثون فأرا سنطلقهم في الحقل ليعيشوا فيه، يأكلون العشبة فيتكاثرون بشكل أكبر. بعد فترة سيموتون تباعا، فمتوسط عمر الفأر هو ثلاث سنوات. كل فأر سيموت ستتحلل جثته في الأرض وتمتص خلاياه التي ستؤدي إلى عدم الإنبات في البقعة التي سيموت فيها. تخيلوا آلاف الفئران ماذا ستفعل في هذا الحقل خلال السنوات القادمة؟ ولن يكتشف أحد أن الفئران هي السبب إلا بعد أن تكون عشبة الخصوبة انتهت وأصبحت من التاريخ.

قال أحمد وقد فهم الهدف:

- هذا معناه انقراض البشرية.

نظر عصام إلى سارة وقال باهتمام:

- هل حقا هذا ما تريدين؟ ليس انقاذ الفتيات بل فناء البشر؟!

نظرت إليه لحظة ثم قالت:

- اتفقنا على ايقاف رحلات الخصوبة وإيقاف الفساد والظلم عن طريق اسقاط النظام. ما المفاجأة هنا؟!

- المفاجأة أن الدول الأخرى ستتوقف رحلات الخصوبة لديها أيضا بموت العشبة.

نظرت إليه بدهشة:

- وما المشكلة؟! ننقذ فتياتنا وكل فتيات الأرض من هذا الظلم. هل هذا سيء؟!

- ليس سيئا ولكن فكرة توقف رحلات الخصوبة في العالم كله معناه أن البشر لن يكون لهم وجود بعد ثلاثمائة عام تقريبا كما قال العلماء. هذه الفكرة مخيفة.

- المخيف حقا هم البشر وما يفعلونه على هذه الأرض. فلنترك هذا الكوكب بسلام فلقد أرهقناه كثيرا.

تبادل عصام وأحمد وحسام النظرات، فالفكرة برغم أنها نتيجة منطقية لمهمتهم إلا أنهم لم يفكروا في ضررها على البشرية كلها.

تنهدت سارة وقالت:

- ليس هذا وقت التراجع، هيا يا حسام احمل الحقيبتين فالفئران بدأت تتحرك وينسحب من جسدها المخدر وقد تصدر أصواتًا تكشفنا. سأخرج لإلهاء الجنود لتتسلل أنت إلى الحقل.

ولم تعطهِ فرصة لأي كلمة ونهضت وهي تأمره بحسم:

- خمس دقائق بالضبط وابدأ التحرك، وعد سريعا إلى الخيمة بالحقيبتين بعد تفريغهما فالفتيات سيعودون بعد نصف ساعة تقريبا.

خرجت سارة من الخيمة وسارت حيث يقف القائد وجنديه وباقي الطاقم ووجهت كلامها للقائد قائلة:

- انه مريض جدًا، ويحتاج إلى الراحة. يجب أن نبيت كلنا هنا اليوم.

قال لها القائد بجدية:

- عفوا أيتها الطبيبة لا نستطيع هذا فالمكان غير مناسب للتخييم. فهو خطر ليلا لوجود بعض الحشرات السامة والعقارب كما تعرفين. المكان الآمن للتخييم على بعد عشرين كيلو متر من هنا والذي سبق وخيمنا به.

- بل يوجد مكان مناسب جدًا على بعد أمتار قليلة، من فضلك تعال معي وسأريه لك.

وسارت في عكس اتجاه الخيمة التي يرقد بها أحمد فتبعها القائد وجنديه في صمت.

كان عصام ينظر من انفراجه صغيرة للخيمة إليهم. وحين تحركت سارة بموكبها الصغير أشار لحسام بالتحرك.

فحمل هذا الأخير الحقيبتين وخرج من الخيمة في اتجاه الحقل بخطوات واسعة ثم ركضا. والطاقم الطبي كان يعطيه ظهره وينظر حيث سارة وموكبها. الذي وصل إلى أجمة أشجار وعبرها فظهر نهر صغير فأشارت نحوه قائلة:

- يمكننا التخييم بجوار هذا النهر، فأنا أذكر عندما جئت تلك الرحلة منذ سنوات قمنا بالتخييم هنا ولم يحدث شيء.

- حقا؟!

- نعم، تستطيع تفحصه لو أردت.

- ولكنني اتبع الأوامر وخطة الرحلة ليس فيها هذا المكان.

- الأمر بيدك ولكن مساعدي بالفعل يحتاج لراحة على الأقل ليوم واحد.

- آسف جدا، لا أستطيع مخالفة الأوامر. سآمر رجالي بحمله أثناء عودتنا والاعتناء به.

أومأت سارة برأسها علامة الموافقة والاستسلام.

وصل حسام إلى الحقل وفتح الحقيبتين ثم الصندوقين وانطلقت الفئران..

أغلق الحقيبتين وحملهما عائدا إلى الخيمة قبل وصول الجنود بدقيقتين بالضبط.

دخلت بعده سارة فرأته يجلس لاهثا فابتسمت له ثم نظرت نحو عصام وقالت:

- هذا دورك الآن، اشعل الجهاز.

- أخرج عصام الجهاز من حقيبته وضغط على أزراره فانبعث منه وميض أحمر نظرت إليه سارة وقالت بخوف:

- هذا ليس الجهاز الكهرومغناطيسي.. إنها قنبلة!

كان وقع كلمة قنبلة كوقع انهيار جبل على رؤوسهم. سلطوا أنظارهم على سارة ثم القنبلة ولم يستطع أحد منهم أن ينطق بكلمة! وأخيرا نزع عصام نفسه من المفاجأة وقال بتوتر:

- ما معنى هذا؟!

تنهدت سارة وقالت بهدوء:

- معناه أن ليلى قررت التخلص من الجميع.

هتف حسام بحيرة وخوف:

- لماذا؟! وكيف تقولين هذا بذلك الهدوء؟!

هزت سارة كتفيها وقالت بنفس الهدوء:

- الموت لا يخيفني، اخترت الموت منذ مشيت في هذا الطريق.

ثم أردفت باهتمام:

- الذي فاجأني هو أن تفعل ليلى هذا، وتقوم باستبدال جهاز الأشعة بقنبلة! هذا الغدر لم أتوقعه.

عصام وأحمد كانا يتابعان الحوار في صمت وقلق. وتذكر عصام حين قالت ليلى" الجهاز مسؤوليتكم ولا تجعلوا أحد يصل إليه حتى سارة" ودار في رأسهِ وقتها هذا السؤال: كيف تطلب منه ليلى هذا وسارة تعلم بوجوده؟ كما أنها هي من أمرته بتشغيله! هناك شيء يحدث ولا يفهمه!

- هل نهرب قبل تفجير القنبلة أم نحاول تعطيلها؟ الموقت يقول أن موعد التفجير بعد ساعتين!

- لن نستطيع ايقافها، لا توجد سلوك لقطعها كما في الأفلام القديمة، تم تفعيلها وستنفجر ولا بد من الرحيل عن هنا.

قال عصام بتوتر:

- والفتيات والطاقم الطبي؟!

نظرت إليه سارة بحيرة:

- ماذا بيدنا لنفعله؟! هل نحذرهم فيعلم الجنود ويتم القبض علينا واعدامنا؟!

كان الأمر بالفعل خطيرا والاختيار صعبا.. إما أن ينقذوا الجميع وينكشف أمرهم وإما أن ينقذوا أنفسهم ويتركون الجميع للموت!

لم تدعهم سارة يفكرون كثيرا:

- انكشاف أمرنا معناه انتهاء الثورة وموتنا جميعا واستمرار الظلم.

قال عصام بإصرار:

- مستحيل أن نترك الفتيات والطاقم الطبي يموتون، لسنا مجرمين نحن أصحاب حق. وأصحاب الحق ليسوا جبناء.

قال حسام بتوتر:

- ليس هذا وقت الشعارات يا عصام، ما العمل؟!

لم يجد عصام ما يقوله وظلوا يتطلعون إليه في انتظار قراره، وأشد ما كان يحيره نظرة سارة!

بعد دقيقتين من التفكير المضطرب حسم أمره وقال:

- سأحمل هذه القنبلة بعيدا وألقي بها على بُعد أمتار من هنا.

قالت سارة بجدية:

- سينكشف أمرنا. كيف ستخرج بالجهاز من الخيمة وهو يومض هكذا؟ سيرونك، وحتى إن وضعت الجهاز في حقيبته لإخفاء الوميض فلن يسمحوا لك بالابتعاد عن هذا المكان. هم يراقبون المنطقة كلها ولن استطيع الهائهم ثانية. كما أننا لا نعلم مدى انفجار هذه القنبلة، ربما مداها يتجاوز الكيلو متر، فإلى متى ستركض قبل أن تنفجر؟!

أغلقت سارة بكلامها هذا كل أبواب الأمل وفتحت أبواب الجحيم كلها داخلهم..

ولم تمهلهم أكثر وقالت بحسم:

-عليكم اتخاذ القرار الآن، الوقت ينفد.

نظر أحمد إليها بحيرة وخوف وقال:

- ماذا سنفعل للخروج من هذا المأزق؟!

- إما نحن أو هم، الاختيار صعب وأنا مثلكم في حيرة. بالنسبة لي حياتي لا تهمني ولكن موتنا يعني فشل المهمة.

ثم نظرت إلى عصام وقالت وعينيها تحمل الكثير من الحزن والحيرة:

- يقولون أن لكل معركة ضحاياها، وعلينا أن نختار ضحايا هذه المعركة، ولا وقت لدينا لأي شيء سوى الاختيار. لماذا تضعنا الحياة في تلك المنحدرات؟! لماذا لا تكون الأشياء دائما واضحة والدروب مضيئة؟!

شعر عصام أن سؤالها هو تفويض كامل منها له بالاختيار وأنها قررت أن تستسلم للحظات القادمة مهما يحدث فيها. وكانت كلماتها ونظرتها الحزينة المتألمة كفيلة له بحسم قراره. وبرغم تلك القبضة التي شعر بها في قلبه وطيف سناء الذي أخذ يلوح له من بعيد إلا أنه نظر إلى رفيقيه وقال:

- نحن لن ننقذ أنفسنا، بل ننقذ الحق والعدل، لا نختار أنفسنا بل نختار النجاح في مهمتنا.

ثم أتبع تلك الكلمات بإحكام قبضته وظهر العزم على ملامحه وهو يقول:

- هيا بنا..

عاجلته سارة قبل أن ينهض قائلة:

- القائد والجنديين!! كيف سنعبرهم؟!

رد حسام:

- هم ثلاثة ونحن ثلاثة، نستطيع التغلب عليهم برغم أنهم مدربون على القتال، لكن عنصر المفاجأة في صفنا.

سارة:

- لديَ فكرة أفضل؛ نحقنهم بمخدر. الفكرة بسيطة، تقتربون منهم ثم كل واحد منكم يحقن واحد منهم بنفس التوقيت وبشكل مفاجئ فلا يمكنهم المقاومة.

هتف أحمد بحماس:

- رائع سارة، هذا أفضل بكثير من مقاتلتهم.

- حسنا، هاك الحُقن.

وفتحت حقيبتها سريعا وأخرجت زجاجة صغيرة عبئت منها ثلاثة محاقن واعطت كل واحد منهم واحدة.

ثم نهضت وأشارت لهم بأن يتبعوها مع اخفاء الحقن في جيوبهم. فقال عصام سريعا:

- وماذا عن الطاقم الطبي؟

- هم معنا.

قالت سارة هذا واتجهت إلى خارج الخيمة. وبرغم دهشتهم تبعوها..

خرجوا بهدوء وراء سارة حتى اقتربوا من مكان وقوف الجنود وقائدهم وتحركت سارة جانبًا فهجم رفاقها عليهم في نفس اللحظة وحقن كل واحد منهم جندي في رقبته وقبل أن يتحركوا نحوهم كانوا قد سقطوا أرضا.

- يا له من مخدر قوي!

هكذا هتف حسام بدهشة.

أشارت لهم سارة بأن يتبعوها فهرولوا خلفها وانضم إليهم باقي الطاقم الطبي دون كلمة.

اتجهت سارة بفريقها نحو النهر ركضًا، وصلوا فاقتحمت سارة النهر وسط دهشتهم جميعًا ولكنهم لاحظوا أنها تسير فيه وأنه ليس عميقا، فرفعوا حقائبهم التي كانوا يحملونها على ظهورهم إلى رؤوسهم وساروا خلفها. وصلوا إلى الجانب الآخر من النهر وحينها سمعوا صوت النفير..

عاد بعض الجنود مع بعض الفتيات بعد أداء مهمتهم في أكل العشبة فرأوا القائد مُلقى على الأرض ومعه جنديه فاطلقوا النفير لاستدعاء الباقين.

كانت تلك الدقائق أخطر ما يكون، وكان يجب أن يبتعدوا قدر الإمكان قبل وصول الجنود.

ولكن أين يذهبون؟!

الوحيدة التي كانت تعرف وجهتها وتسير نحوها بثبات هي سارة، والباقين في أثرها بلا تفكير ولكن بقلوب واجفة.

خرجوا من النهر وركضوا حتى وصلوا إلى منطقة عارية ومسطحة ليس بها تعاريج وصخور أو أشجار كالتي مرت عليهم، وكأن هذه المنطقة قد تم تمهيدها لتكن مهبطًا لطائرة صغيرة.

وبالفعل بعد ثوانٍ لمحوا طائرة هليكوبتر في السماء تقترب منهم حتى استقرت على الأرض.

بعد صعودهم إليها واستقرارهم فيها وهي ترتفع مرة أخرى في السماء، بدأ احساس الارتياح يسري بينهم ومعه بدأت الأفكار تزحف إلى عقولهم..

- أظن أنه ليس مسموحا لنا أن نسأل عن تلك الطائرة وكيف وصلت إلى هنا في هذا التوقيت بالذات!

كان هذا ما قاله عصام في لهجة متشككة ومستريبة.

اجابته سارة والتي كانت تجلس قبالته:

- نعم ليس مسموحًا لكم.

بغضب مكتوم أجابها عصام:

- لكن يجب أن تخالفي تلك القاعدة ولو لمرة واحدة وتخبريننا كيف جاءت تلك الطائرة في هذا التوقيت تحديدًا لإنقاذنا والمفروض حسب الخطة الأصلية أننا داخل المجال الكهرومغناطيسي ولا خطة لهروبنا منه، لأنه لم تكن بالخطة قنبلة من الأساس!

قالت سارة بهدوء ولكن بإرهاق واضح:

- قلت لك هناك دائما خطة بديلة تحسبًا لأي ظرف طارئ.

فسارع أحمد بالسؤال:

- وكيف قمتِ باستدعاء المروحية؟!

- بهذا..

ورفعت يدها ليشاهد الجميع خاتمها ذي الفص الأحمر وقالت:

- بداخله جهاز ارسال متناهي في الصغر، بمجرد الضغط عليه تُرسل رسالة الاستدعاء إلى تلك المروحية التي نركبها الآن.

لم يعلق أحدهم واكتفوا بالصمت حتى وصلت المروحية إلى مهبطها بعد ساعات. خرجوا من الطائرة والتفوا حولهم متسائلين عن مكانهم فأخبرتهم سارة قبل أن يسألوا:

- نحن نقف الآن على سطح المشفى التي أعمل بها، وهذه المروحية تابعة لها، لهذا هبوطها هنا لن يثير ريبة أحد. ستهبطون معي الآن إلى داخل المشفى مع طاقمي الطبي باعتباركم عاملين فيها. سيروا بثقة وفي صمت ولن يرتاب أحد فيكم.

كانت توجه كلامها إلى عصام وصديقيه، ثم التفتت إلى طاقمها الطبي وقالت لهم:

- خطتنا كما هي، كل واحد منكم يعلم ما يجب عليه أن يفعله، إن واجه أحد منكم مشكلة فليتصل بي فورًا.

كانت تبدو سارة كزعيمة حقيقية، هكذا رآها عصام في تلك اللحظة.

تحرك الجمع إلى الدرج الداخلي للمشفى وهبطوا عليه سريعا حتى وصلوا إلى الدور الثالث ثم تفرقوا..

سارة وعصام ورفيقيه في طريق والطاقم الطبي في طريق.

وسأل عصام سارة وهم يسيرون حيث لا يدري:

- أين ذهب مساعديكِ؟!

- لديهم مهام عليهم تنفيذها.

وقبل أن يسأل عصام عن ماهية تلك المهام أردفت سارة:

- سيطلقون سراح المرضى.

كانت الدهشة المرتسمة على وجه عصام في تلك اللحظة تشبه لحظة اكتشافه أن جده على قيد الحياة!

الفصل الثامن

ثمة وجه آخر لكل شيء..

جلس عادل وحسان في بيت الدكتور خالد كلا منهما أمام شاشة حاسوب، التعليمات التي تلقياها هي أن يبثا خبر اختطاف الفتيات فور وصول الرسالة التي سترسلها سارة إليهما عبر الإيميل، ولكن الرسالة تأخرت..

نادى عادل على صوفيا:

- صوفيا، هل ممكن أن تصنعي لنا شايًا بالنعناع؟

نظر إليه حسان بدهشة:

- ومن أين لها بالنعناع يا أستاذ؟! النعناع عشبة منقرضة، لم نسمع عنها إلا في الأفلام العربية القديمة.

التفت إليه عادل قائلا:

- رأيته في الباحة الخلفية، في حوض صغير يبدو أنه تم زراعته حديثًا، نكهته رائعة ولونه أخضر جميل. في الحقيقة لم اعرف ما هو، حتى

قطفت منه القليل وذهبت به إلى صوفيا فأخبرتني أنه نعناع أخضر، واعدت لي منه كوبا مع الشاي وكان رائع المذاق.

همس حسان بصوت خافت وهو يميل برأسه قليلا نحو عادل:

- ألم يثر هذا دهشتك؟! ألم تتساءل من زرع تلك العشبة والبيت حين جئناه منذ يومين كان مهجورا؟

هز عادل رأسه ببطء وهو يحاول التفكير في ما قاله حسان:

- ربما لم يزرعها أحد، بعض النباتات تظهر وحدها دون قصد أو زراعة.

- حالة الحديقة لا تسمح بهذا، هناك من زرع هذا النعناع.

نظر إليه عادل وهو يفكر ثم عاد للنظر إلى شاشة حاسوبه دون كلمة.

جاءت صوفيا بعد قليل تحمل الشاي ثم وضعته بجوارهما على المنضدة التي تفصل بينهما.

كانا يجلسان في غرفة المعيشة الرحبة، الغرفة لها طراز قديم ولكنه رائع، كل جزء فيها له جماله الخاص.

جلست صوفيا على الأريكة التي بجوارهما ونظرت إليهما متسائلة:

- أين وصلنا؟

رد عليها حسان:

- لا شيء، لم تصلنا الإشارة بعد. أقصد رسالة البريد الإلكتروني.

- ستصل، بعض الصبر وستصل.

تنهد حسان وامسك بكوب الشاي وقربه من فيهِ في حذر، فهذه أول مرة يذوق شايًا بالنعناع. ارتشف رشفة ثم نظر إلى عادل مبتسمًا:

- لذيذ.

غمز له عادل بعينيه:

-ألم أقل لك.

في تلك اللحظة دق الباب دقات خاصة، فنهضت صوفيا لتفتح..

دخلت ليلى وفي عينيها حزن غريب ودموع متحجرة! نظروا إليها بتساؤل! وكانت سالي قد أتت على صوت الدقات ورأت معهم مظهر ليلى الحزين فبتدرتها بالسؤال:

- ما بكِ؟!

لم تجيبها ليلى ولكنها اتجهت في خطوات بطيئة إلى الأريكة بجوار حسان وألقت بنفسها جالسة وكأن قوتها خارت في تلك اللحظة، ورفعت يديها إلى وجهها واجهشت بالبكاء..

أصاب رؤيتها هكذا جزع صوفيا وسالي فهرعتا نحوها ووضعا أيديهما على كتفيها وهم يسألانها في خوف عن سبب بكائها! فرفعت رأسها بعد دقيقة ومسحت دموعها بيديها فظهر وجهها محمرا وكان بلا مساحيق فبدا وجهها كطفلة باكية:

- الرئيس مات.

قالتها ببطء ممزوج بالألم، ولكن جملتها أثارت زوبعة داخل كل الموجودين حولها، فنظروا إليها وإلى بعضهم في ذهول..

أول من نزع نفسهِ من هذا الصمت الذاهل هو حسان الذي سألها وصوته يرتجف:

- كيف حدث هذا؟! ألم تقولي أن الرصاصة ليست حقيقية؟!

هزت رأسها ببطء وهي تقول:

- بلى، ولكن لا أعرف ماذا حدث!

ثم رفعت رأسها وسلطت عينيها على حسان وعادل وهي تقول بغضب:

- هل قام رؤوف بتبديل الرصاصة؟

سارع عادل بالرد:

- بالتأكيد لا، كلنا نلتزم بالتعليمات.

- إن لم يكن هو، فمن؟!

كان سؤالها ملقى في وجوههم كاتهام للجميع، حتى صديقتيها لم تكونا خارج هذا الاتهام. الكل متهم الآن في عين ليلى.

تمنى حسان في تلك اللحظة أن يتواجد معهما عصام، لم يكن يدرِ ماذا يفعل أو ما الذي سيحدث بعد هذه المفاجأة! عادت نظرة عين ليلى إلى اللين بعد أن غمرتها الدموع ثانية، لم يكن يتوقع أن تحزن ليلى عليه هكذا وهي التي كانت تسعى معهم لإسقاطه ومحاكمته وربما إعدامه. هذه الفتاة كصندوق العجائب المليء بالمفاجآت.

قطعت سالي هذا الصمت وهي تربت على كتف ليلى:

- اهدئي عزيزتي، ربما لم يبدل أحد الرصاصة وجسده لم يتحمل تلك المادة المخدرة فحسب.

أجابتها بإصرار:

- لا، الرصاصة كانت حقيقية وأصابت القلب مباشرة فمزقته، لم يخبروني بوفاته إلا بعد ساعات وظهور التقرير واستخراج الرصاصة. لم تكن هي الرصاصة التي أعطيتها لرؤوف.

كانت كلماتها كفيلة بإسكاتهم، هل بدل رؤوف حقًا الرصاصة! هل خدعهم رؤوف؟!

وفي خضم أفكارهم اصدر جهاز الحاسوب أزيزًا تعبيرًا عن وصول رسالة، كان فحواها حين فتحها عادل كالآتي:

"احذروا من ليلى، حاولت التخلص من الجميع، اتركوا مكانكم فورًا"

أصابت عادل صاعقة حين قرأ الرسالة ولم يدر هل يقرأها عليهم أم يحذفها قبل أن تقرأها ليلى!

لكن ليلى لم تمهله، حين لمحت حسان يميل برأسه ليقرأ الرسالة من على الحاسوب الذي أمام عادل، فنهضت ودارت حول أريكتهما ووقفت خلفهما وقرأتها..

وتوقف المشهد بهم فدارتا الفتاتان مثلها وقرأتا الرسالة وتسمر الجميع من المفاجأة..!

كان الموقف خطيرًا وحرجًا، فالرسالة جاءتهما من الإيميل الذي ينتظرون منه رسالة اتمام الجزء الأول من الخطة؛ فبالتأكيد الرسالة صحيحة!

وفجأة صاحت ليلى:

- ما هذا العبث؟!

سارعت سالي قائلة:

- يبدو أن الإيميل تم اختراقه، هناك من يتلاعب بنا!

الشك كان يرسم ظلاله على وجهي عادل وحسان، والحزن ممتزجًا بالغضب على وجه ليلى، والحيرة على ملامح سالي وصوفيا. وكانت الخطوة القادمة مبهمة للجميع..

****

فتح رؤوف باب الشقة بمفتاحه الخاص، فوجد ميرو تجلس أمام الحاسوب تضغط على أزراره، فنهضت فور اقترابه منها مرحبة وسألته:

- ها ماذا فعلت؟

- استطعت الاتفاق مع بعض الأشقياء على إثارة الفوضى، لا يعلمون أنها ثورة، طلبت من كل مجموعة منهم على حدة أن تتجه إلى الأماكن الهامة التي اتفقنا عليها. واعطيتهم الخرائط والأموال اللازمة. لم يتبق معي سوى هذا المبلغ.

وانزل من على كتفه حقيبة أخرج منها رزمة من النقود.

- هذا رائع يا رؤوف، هل أخبرتهم بساعة الصفر؟

- قبل أن أخبرهم جاءتني رسالة على هاتفي من حسان يقول لي فيها "تعالى الآن" لكن هذه الرسالة لم تكن من الخطة لهذا جئت إليكِ لأفهم منكِ لو كان هناك تعديل ما في الخطة. خشيت أن تكون رسالة مزيفة أو أن يكون كمينا.

قالت ميرو وإمارات القلق بادية عليها:

- أحسنت بعدم استجابتك للرسالة، ولكن ما العمل الآن؟

أشار رؤوف نحو الحاسوب وهو يقول:

- ألم تأتِ رسالة من عصام أو سارة بنجاح مهمتهم؟

هزت رأسها في حيرة:

- لا لم تصل بعد، لا أعرف سبب التأخير، ولكن لدينا خطة بديلة في حالة عدم وصولها هذه الليلة.

قال رؤوف باهتمام:

- وما هذه الخطة؟!

- الانسحاب وتوقف كل شيء؛ فلا خطة بدون نجاح الجزء الاول منها.

- ولكن نجحنا في قنص الرئيس!

- نعم ولكن بدون تحرك الشعب معنا لن ننجح في هذه الثورة، والشعب لن يتحرك بدون إشعال غضبه وهو قتل فتياته، أو إشاعة هذه الكارثة.

- ماذا بظنك قد حدث؟

- لا أعلم، ولكن لو تأخرت الرسالة أكثر من هذا فمعناه اخفاق سارة ورفاقها أو موتهم.

****

كان الهرج والمرج هما سيدا المشهد في تلك المشفى؛ فوجئ الأطباء والعاملون والإداريون بجحافل المرضى وهم خارج غرفهم وينتشرون في رواقها في حالة هياج غريبة لم يفهموا لها سببا!

وفي احدى الغرف المكتبية كانت تجلس سارة منحنية على أحد الحواسيب تضغط على أزراره وعصام وحسام يقفان مراقبان للباب تحسبا لأي اقتحام مباغت، لم يكونا يعلمان ماذا تفعل سارة على الحاسوب، وكانت الأصوات التي تأتيهما من خارج الغرفة تصيبهما بالتوتر! وما كان يثير توترهما أكثر أن عصام طلب من أحمد وسارة منهمكة في ما تفعله أن يخرج بهدوء ليعرف ما الذي يحدث في الخارج وقد ذهب ولم يعد منذ عشر دقائق، مرت وكأنها سنوات حتى أوشك عصام على الخروج خلفه وفي تلك اللحظة سمعا طرقات متتابعة ومتوترة على الباب ففتحه حسام بحذر وهو متأهب، فكان القادم أحمد..

دخل وهو يلهث، فأغلق حسام الباب وراءه بإحكام واندفع عصام إلى أحمد الذي تهاوى منهكًا على أقرب أريكة إليه:

- أحمد ماذا رأيت؟

هتف عصام بهذه الكلمات فتوتره بلغ مداه.

- المشفى في حالة فوضى رهيبة، المرضى هجموا على العاملين والأطباء تمزيقا وقتلا، ما حدث أبشع من أي وصف!

رفع عصام رأسه في دهشة وصدمة نحو سارة التي لا زالت تضغط على أزرار الحاسوب دون توقف وكأنها لم تسمع حرفًا مما قيل:

- سارة! هل سمعتِ ما قاله أحمد؟

لم تجبه سارة وظلت مستمرة في عملها، فاندفع نحوها في غضب، وحين وصل إليها وقع بصره على شاشة الحاسوب فتوقف في دهشة!

فالشاشة كانت مليئة بنقاط وخطوط مرقمة، وسارة تضغط على هذه الأرقام في تتابع لم يفهم نمطه وبدا له عشوائيا ولكنه كان يشعر أنه ليس كذلك!

وفي تلك اللحظة سمع حسام يقول في خوف:

- أسمع أصوات رصاص! هل أصبحت حرب أم ماذا؟!

اندفع عصام نحو الباب ليفتحه فكل ما خطر في باله تلك اللحظة هو جده وأنه يجب عليه إنقاذه والتأكد أنه بخير.

وبمجرد فتحه للباب سمع صوت سارة وهي تصرخ:

- اغلق الباب، لا تسمحوا لأحد بالدخول، ستفسدون كل شيء.

أغلق عصام الباب واحكم حسام اغلاقه ووقف خلفه متحفزًا في توتر، والتفت عصام نحو سارة وهو يقول بغضب:

- يجب أن نعرف ما الذي يجري، لسنا دُمى تحركينها كما شئتِ. لم تخبرينا أن هذا سيحدث، كما أن جدي بالخارج ويجب أن أذهب إليه.

- انتظر قليلا وتأكد أن جدك بخير، هو من خطط لهذا كله وبالتأكيد وضع خطة لتأمينه.

كانت الحيرة كموج مضطرب في رأس عصام، يشعر بأن هناك شيء خاطئ ولكنه لا يعرف ما هو!

****

- رؤوف رؤوف، الرسالة وصلت.

هكذا هتفت ميرو، فاندفع رؤوف خارجًا من الحمام وهو لم يرتدِ بعد كامل ملابسه.

- علينا التحرك الآن اذهب إلى الأشقياء ليطلقوا فوضاهم، وسأرسل أنا رسالة البدء لعادل وحسان.

- لحظة يا ميرو!

- ماذا؟!

- ماذا عن الرسالة التي أرسلها لي عادل؟! هل أذهب إليه أولا أم أتجاهلها؟

- من رأي أن نسير في الخطة كما هي، طالما أن الرسالة وصلتنا فهذا معناه أنه لا تغيير، وعلينا أن نتحرك وفق الأوامر.

تنهد رؤوف:

- حسنًا.

واتجه نحو الباب فنادته ميرو وهي مبتسمة:

- إلى أين يا طرزان؟

التفت إليها وهو لا يفهم سبب سؤالها ووصفه بطرزان!

فأشارت له نحو جسده، فنظر فوجد أنه لم يرتدِ قميصه بعد، فابتسم مثلها قائلا:

- لهذا أحتاج إلى زوجة، لا أستطيع أن أحصي لكِ عدد المرات التي خرجت فيها دون قميص أو حذاء.

ضحكت ميرو، ووضعت يدها على فمها تخفي ضحكتها، اعجبته ضحكتها وصوتها فاقترب منها متأملا ملامحها الرقيقة لحظة ثم مد يديه فأزاح يدها وهو ينظر في عينيها:

- لا تخفي ضحكتك أبدًا، دعي الشمس تشرق.

شعرت بالخجل الممتزج بسعادة، هذا الإحساس الذي لا يوصف ولا يُكتب ولا يُرسم، هو فقط يشع في جنبات الروح ويمتد إلى القلب وتخرج أضوائه من العين وتنير الوجه والجدران والأركان وتجعل الكّون كله يرقص طربا..

يشعر نحوها بشعور دافئ، كالوصول إلى الوطن بعد طول اغتراب..

ابتلعتهما تلك اللحظة ابتلاعا، فلا سماء ولا أرض ولا حدود. ثقب أسود، جذبهما بقوة داخله فتبعثر الواقع أشلاء حولهما، وكانت لحظة كالسحر، بلا منطق أو فهم.

وأعادهما إلى الواقع بكل قسوته صوت هاتف رؤوف، حين صدح بموسيقى الراعي. حمل هاتفه من على المنضدة ونظر فيه فوجدها رسالة أخرى من عادل "تعالى فورًا توجد كارثة"

رفع رأسه ونظر إلى ميرو ووجه هاتفه نحوها لتقرأ الرسالة، وقرأتها في قلق ثم قالت:

- سأذهب معك.

- هل ترينه تصرفًا صائبًا؟

- أراه تصرفًا تفرضه الظروف، يجب أن نعرف ماذا يحدث.

- والرسالة التي جاءتك من سارة؟
- سأنفذ ما فيها ثم أذهب معك لنرى ما الأمر. ليس أمامنا غير هذا.

****

وصل رؤوف وميرو إلى بيت دكتور خالد؛ مقرهم السري، حيث باقي المجموعة يختبئون.

فتحت لهما سالي الباب وهذا طمئنهما قليلا، لأنهما كانا يخشيان أن يكون كمينا. دخلا فوجدا ليلى وصوفيا وحسان وعادل يتحلقون حول الحاسوب الذي يتوسط غرفة الصالون ويتحدثون بجدية. انضما إليهم وهما يسألان عن سر الرسالة وسبب هذا الاستدعاء المريب، فأجابهما حسان:

- اجلسا، يوجد ما يجب مناقشته.

جلسا في هدوء وحيرة، خاصة أنهما لاحظا وجه ليلى والدموع التي تركت أثارها على عينيها ووجهها!

- الرئيس مات يا رؤوف، هل لديك معلومات بهذا الخصوص؟

الخبر جعل رؤوف يقفز من مكانه كالملسوع، فأشار له حسان أن يجلس ويهدأ..

- هل قمت بتبديل الرصاصة؟

رد رؤوف بتوتر:

- بالطبع لا، ما معنى هذا السؤال؟!

أجابته ليلى ببطء:

- معناه أن الرئيس قُتل برصاصة حقيقية اخترقت قلبه. من أين جاءت تلك الرصاصة وأين ذهبت الرصاصة التي أعطيتها لك؟

نهض رؤوف بعصبية وقال بصوت غاضب:

- اسمعي، أنا لا أتلق أوامري منكِ ولم آخذ منكِ شيئا، هذا كان اتفاقي مع عصام. الرصاصة أخذتها منه وكذلك الأموال التي قمت بتوزيعها على الأشقياء.
- هه، ومن أعطاهما لعصام أيها الذكي؟! أنا من فعلت هذا، اخبرني لماذا قمت بتبديل الرصاصة؟ أم عصام هو من فعل؟!
- لا تتهمينا هكذا، ربما أنتِ من قام بتبديلها لتتخلصي من والدك، أنتِ شخصية مريضة.

قال هذا بانفعال وعصبية وهو يقف في مواجهتها، ولكن سرعان ما تسربت إليه بعض مشاعر الشفقة حين لمح عينيها تغرورق بالدموع وهي تصرخ في وجهه:

- لم أرغب في قتله، أردته فقط أن يشعر ببعض الألم، أن يتذوق المرض وآلام المرضى، أن يشعر بالضعف ولو مرة واحدة في حياته، أن يعرف كيف القسوة مؤلمة ومهينة ومميتة.

ثم تجولت بعينيها بينهم وهي تقول وكأنها تدافع عن نفسها:

- لم أشأ أن يموت، لم أرد هذا صدقوني.

كانت عينيها صادقة، وكلماتها صادقة، ولكن هذا الصدق تصطدم به حقيقة أخرى!

هناك من بدل الرصاصة، وهناك من أرسل رسالة يقول أن ليلى خائنة، فأين الحقيقة؟!

- ليس أمامنا سوى الاستمرار في خطتنا، ولكن يجب أن نكون على حذر، هناك شيء خاطئ يحدث وعلينا أن نفهمه.

كانت تلك كلمات ميرو، منطقية وحاسمة، ولكن هذا الحسم تراجع حين قال لها عادل:

- عليكما أولا أن تقرئا تلك الرسالة.

وأشار لهما ليقتربا، واقتربا بالفعل فوجهما نحو الحاسوب وقرئا رسالة التحذير.

فقالت ميرو في حيرة:

- لماذا تقول سارة هذا؟!

سؤال ميرو برق في رأس حسان، فالتفت نحو ليلى وسألها:

- كيف تعرفتي على سارة يا ليلى؟
- من خلال المشفى التي تعمل بها، قابلتها في غرفة الدكتور خالد.

- ومن الدكتور خالد؟! أقصد كيف تعرفتي عليه؟
- هو من تعرف علي، أخبرني أنه يعرف جدتي وأمي، تعارفا حين كانت تزور جدتي المريضة في نفس المشفى، ومن العجيب أن أمي أصبحت نزيلة فيما بعد في هذا المكان، ولكنه لا يعلم وسألني عنها، ولم أخبره حتى الآن.
- ولِمَ لم تخبريه؟!
- لا أعرف، لا أحب إخبار أحد بهذا، ولا أعرف لِمَ أخبرتكم الآن!

قاطعتهما صوفيا بصوت قلق:

- دعكما من هذا الحوار الذي لا يفيد، علينا أن نتحرك وفق الخطة المتفق عليها أو نلغيها كلها، الوقت يداهمنا ويجب أن نأخذ القرار.

تبادلوا النظرات جميعًا في انتظار أن يتحدث أحد، في البداية كانت تقودهم ليلى، ولكن ليلى الآن عرشها يهتز، سارة تقول لهم لا تثقوا في ليلى، فمن القائد؟! وليلى لم تحاول أن تسيطر عليهم أو تستعيد زعامتها، وكأن حزنها على والدها أفقدها الرغبة في كل شيء.

- لنستمر، لن نتوقف الآن. اكملوا مهامكم وسآخذ ليلى ونذهب إلى سارة لنفهم ما يحدث.

قال حسان هذا وهو قابض على يديه حاسمًا للأمر. فاستجاب له الجميع وبدأوا في التحرك..

جلس عادل إلى جهاز الحاسوب وبدء في بث الخبر في كل المواقع الاخبارية ووسائل الاتصال في شبكة الانترنت. وسار خبر اختطاف الفتيات كالطوفان يجتاح كل الأخبار الأخرى متربعًا على عرش الاهتمام.

وانطلق رؤوف ليبلغ الأشقياء بساعة الصفر ويشرف على تنفيذهم للأمر، وعادت ميرو إلى الشقة التي في مواجهة قصر الرئيس لتتابع الموقف وتراقب تحركات القصر.

وحسان أخذ ليلى وخرجا متجهين إلى المشفى حيث باقي المجموعة..

الفصل التاسع

الظلام هو غياب النور..

صرخ وزير الأمن الداخلي في مساعديه بالتحرك لمواجهة ذلك الخبر الصادم "الفتيات تم خطفهن" أي كارثة تلك التي تأتي في يوم واحد مع كارثة اغتيال الرئيس!

تم ارسال طائرات خاصة للبحث عن رحلة الخصوبة بعد ما فشلت كل وسائل الاتصال بها. لا إشارة من أجهزة المراقبة المرافقة لهم، ولا رد على أي اتصال! وكأن جميع الأجهزة التي معهم اختفت من الوجود. ولم يتوقف الغموض عند هذا الحد فمروحيات البحث عادت هي أيضًا تضيف للألغاز لغزًا جديدا، فلا أثر لرحلة الخصوبة، ولا لأمتعتهم. فقط طائرتهم شوهدت فارغة في مكان هبوطها، اللغز الأكثر غموضًا كان اختفاء حقل عشبة الخصوبة! لا أثر له من أعلى. بحثت المروحيات عنه في مكانه المعروف بإحداثياته المعروفة ولكن لا أثر..!

وأصبحت الحكومة بين شقي الرحى.. قُتل الرئيس في بيته ووسط حراسه، واختطفت الفتيات بحراسهن!

خرج الناس إلى الشوارع يطالبون الرئيس والحكومة بإعادة بناتهم. ولم تعلن الحكومة موت الرئيس. كان التخبط واضحًا، لم يسمح الرئيس طوال فترة حكمه بوجود هيكل تنظيمي يواجه الأزمات في حالة عدم وجوده. وكأنه مخلدًا، والحكم لن يزول عنه.

ورئيس الوزراء إعتاد على الرجوع إلى الرئيس في كل مشكلة، ووزرائه اعتادوا على الرجوع إليه؛ وغاص الجميع في الأزمة لأعناقهم..

ماج تراب الأرض تحت أقدام المتظاهرين، وفي خضم صراخ الأمهات وهتاف الآباء جاء الخبر الجديد كالصاعقة: تم قتل الفتيات وحراسهن!

من القاتل؟! لا أحد يعرف.

لماذا تم قتلهم؟! لم يسأل أحد هذا السؤال فالكارثة أطاحت بعقول الجميع.

كيف تم القتل؟ صور لانفجار كبير وصور لحطام طائرة وأشلاء ممزقة، هذه المشاهد امتلأت بها الشبكة العنكبوتية والشاشات العملاقة المنتشرة في الميادين الكبرى..

ولم تنجح محاولات الحكومة في إنكار الحادثة، حتى بعد إذاعتها لصور الطائرة وهي في موقع هبوطها بالغابة الاستوائية. الجميع رفض تصديق الحكومة لأنها عجزت عن الإجابة على هذا السؤال: أين الفتيات؟!

وما زاد الطين بلة أن الرئيس لم يخرج ليطمئنهم أو يخبرهم بالحقيقة، وانتشرت شائعة بأن الرئيس متواطئ في تلك المذبحة وهو من أمر بتفجير الطائرة لأنه مصاب بمرض خطير ويحتضر لهذا أراد أن ينتقم من الجميع ويحرق قلوبهم كما يحترق قلبه لاحتضاره.

لم يفكر الناس كثيرا في تلك الشائعة، كان لديهم استعدادا لتصديق كل شيء، خاصة حين بثت وسائل التواصل الاجتماعي من مواقع غامضة الملف الطبي للرئيس، كان بالفعل الرئيس يحتضر..

- من بث هذا الملف الطبي؟!
- لا نعرف، ولكننا بحثنا عن التقارير الموجودة فيه وتأكدنا من صحتها وتوقيع الأطباء عليها، الرئيس كان مصابًا بقصور شديد

في عضلات القلب مع تآكل في خلاياه نتيجة اصابته بالسرطان.

ولا نعرف حتى الآن كيف استطاع الرئيس التكتم على أمر كهذا!

- لم يكن يثق في أحد، حتى فينا نحن أركان نظامه. تبًا له ولكل ما يحدث الآن.

جز رئيس الوزراء على أسنانه بعد عبارته تلك وأغمض عينيه في ألم، وعقله يتمنى أن يكون كل ما يمرون به الآن حلما..

اندفع وزير الأمن الداخلي إلى قاعة الاجتماعات وهو يلهث:

- اعتذر عن التأخير، فالبلد تشتعل بالثورة ووصلت إلى هنا بصعوبة.
- اجلس واخبرنا ما الوضع الأمني بالتفصيل.
- ليس مبشرا بالخير، فقدنا قدرتنا على الإعلام، فقدنا القدرة على الأمن الداخلي وحركة المرور. الشعب كله في الشوارع والميادين يهتف بسقوط النظام ويحرق كل المنشآت الحكومية في طريقه وكذلك الشركات الكبرى التابعة لنا أو التابعة للمتعاملين معنا الموالين لنا. فوضى عارمة ودمار كبير وحرائق في كل مكان وصراخ وحزن وغضب، إنه الجحيم في أشد صورة له.

كانت كلماته كالمقصلة، سقطت على أعناق أمالهم وأمانهم فبترتها..

امتقعت وجوههم، وكل واحد منهم انشغل بالتفكير في مصيره إذا ما تم اقتحام القصر الرئاسي الذي يجتمعون فيه، فالشعب حتى تلك اللحظة لا يعلم بموت الرئيس.

- ماذا لو أعلنا موت الرئيس؟ هل سيهدأ الناس أو يتغير الوضع؟
- ستكون كارثة مضاعفة، ومن لم يشترك في الثورة خوفا من الرئيس سيشارك، وسيرانا الجميع كظهر عاري وسيتم جلدنا بلا رحمة، أو اعدامنا دون شفقة.

فكر رئيس الوزراء قليلا، ومر في ذهنه صورة زوجته وأولاده، ثم حسم أمره ونهض وهو يقول:

- انتهى الأمر يا سادة، فلينقذ كل منكم نفسه فالسفينة تغرق.

وخرج من القاعة دون أن يرد على نداءاتهم فهو نفسه لم يكن يعرف كيف سينقذ نفسه، ولكن كل ما كان يشغله في تلك اللحظة هو انقاذ أسرته والرحيل بهم عن هذا الخطر.

****

وصل حسان وليلى إلى المشفى، أوقف سيارته وخرجا منها ركضا، ولكن قبل أن يصلا إلى المدخل رأيا مشهدًا رهيبا: ثلاثة من المرضى يمسكون بأحد الحراس على السلم ويمزقون جسده بأسلحة حادة ويقضمون أطرافه بأسنانهم! وكأنه مشهد من فيلم الموتى الأحياء(الزومبي)!

اخفت ليلى وجهها في كفيها لبشاعة المشهد، ولم تشعر إلا بيد حسان وهو يمسك يدها ويركض بها إلى الداخل متجنبًا هؤلاء الهمجيون وفريستهم.. أصبحا في قلب القاعة الرئيسية في المشفى، لا، بل في قلب مسلخ بشري رهيب..

الجثث الممزقة ملقاه على الأرض والجميع يركض في هياج ما بين خائف وصارخ ومهاجم..

وفجأة سمع حسان صرخة ليلى، فالتفت خلفه فوجد أحد المرضى يتجه نحوها وهو يرفع يديه الممسكة بسكين صغير يحاول طعنها به. وقبل أن يصل نصل السكين إلى جسدها كانت قدم حسان

الأسبق، حيث دفعت هذا المُهاجم فألقت به بعيدًا، ولم يتوقف بعدها لحظة، حيث جذب ليلى وهو يقول لها في توتر" هيا"

كانا لا يدريان إلى أين! فاخرج حسان هاتفه محاولا الاتصال بعصام، ولكن لم يرد! صعدا الدرج حيث الطابق الثاني وكان أكثر هدوءً ولكن لم يخلوا من آثار الدماء على الأرض والجدران.

وفجأة هتفت ليلى "أستاذي" فنظر حسان حيث تنظر فرأى رجلا كهلا ملقى على الأرض في مدخل أحد الغرف المفتوحة.

هرعت ليلى نحوه، والقت بنفسها عليه تتأكد من نبضه، وحسان لحق بها وركع بجوارها ينظر إليه..

رفعت ليلى نظرها إلى حسان في حزن وخوف وهي تقول:

- احمله معي إلى سريره.

تحرك حسان وحمله دون كلمة بمساعدة ليلى وارقدوه على فراشه. كان وجهه يبدو مصفرا، هربت منه الحياة، ولكن نبضه لازال يبشر بالأمل. اخرجت ليلى من حقيبتها زجاجة عطر، حاولت انعاشه برائحتها، وتحركت أجفانه بالفعل فتهلل وجهها..

فتح عينيه ببطء فانطلقت الدموع من عين ليلى فرحًا. كان حسان يراقبها في صمت ودهشة، لا يفهم سر تعلقها بهذا الرجل أو من

هو. ولكنه شعر أن هذا الوقت لا يسمح بأي أسئلة، فكل ما يحدث كان بلا أجوبة.

وتحرك لسان دكتور خالد ببطء وقال وهو ينظر إلى ليلى:

- امنعيها..

لم تفهم ليلى من يقصد، وظنت أنها لم تسمع ما يقوله بدقة، فانحنت نحوه ووضعت رأسها قرب فمه لتسمع ما يقول، وبالفعل قال عدة كلمات لم يسمعها حسان ولكن ملامح الدهشة التي ارتسمت على وجه ليلى جعلته يشعر بالقلق أكثر.

- ماذا قال؟!

اعتدلت ليلى في وقفتها ونظرت إليه في حيرة وقبل أن تنطق سمعا شهقة قوية من الدكتور خالد وسكن جسده تماما..

هوت فوقه ليلى تحاول انعاشه وضرب وجهه ليستيقظ، وحسان وضع يديه على عنقه يتحسس نبضه، ثم امسك بها وابعدها عنه وهو يهز رأسه علامة أن لا فائدة؛ فلقد مات الدكتور خالد..

لم تترك الأحداث المتلاحقة فرصة لليلى لتحزن على موت أستاذها كما لم تمنحها فرصة على الحزن بقدر كافٍ لموت أبيها،

فلقد سمعا ضجيجا وصراخا يقترب مصدره من الغرفة التي يقفان فيها. فهتف حسان:

- يجب أن نغادر هذه المشفى.
- لا، يجب أن أجد أمي أولا، هي هنا في نفس هذا الطابق.

وقبل أن يتفوه حسان بكلمة اندفعت راكضة نحو الباب وعبرته حتى وصلت إلى غرفة مُغلقة، فتحتها بلهفة وخوف واندفعت داخلها. لحق بها حسان ووقف معها داخل الغرفة الفارغة..

فلم تكن أُم ليلى بداخلها! نظرت ليلى إلى حسان بهلع والدموع في عينيها لا تتوقف:

- أين ذهبت؟! ماذا حدث لها؟!
- اهدئي سنجدها، لا بد أنها شعرت بالخوف فخرجت من غرفتها، تعالي.

وجذبها ليخرجا من الغرفة بحثًا عن الأم. هرعا نحو الدرج إلى الطابق الثالث بعد أن نظرا داخل كل الغرف التي مرا بها وكان بعضها خاليا وبعضها في حالة فوضى. وصلا إلى غرفة الإدارة فشاهدا احد المرضى وهو يمسك في يديه سكينا ضخما ويحاول خدش الباب به وتحطيمه، نهره حسان ليبتعد فنظر نحوه الرجل وهجم عليه

يريد قتله، فتحرك حسان في نفس اللحظة التي وصل فيها الرجل إليه فاستمر اندفاعه وأكمل عليه حسان بدفعة قوية من يديه فوجد نفسه يصل إلى طرف الدرج ويسقط منه متدحرجا وهو يصدر صريخا متصلا. وقف حسان أعلى الدرج ينظر إلى الرجل المتكوم على نفسه في أسفله، شعر بالضيق من نفسه لقتله هذا الرجل المريض، ولكنه شد على قبضته ليخرج نفسه من تلك اللحظة وعاد إلى ليلى التي كانت تحاول فتح الباب وهي تهتف باسم سارة.

فُتح الباب فظهر أحمد وعصام وسارة وحسام. كان يبدو على الجميع القلق والارهاق. اندفعت ليلى نحو سارة ورفعت يدها وصفعتها بعنف..

امسك بها عصام وعاد بها للوراء وهو في دهشة من تصرفها هذا! كانت الصفعة قوية جدًا اسالت خيط دماء صغير على جانب فم سارة بسبب الخاتم المتعرج الذي ترتديه ليلى. وقف الجميع دون حراك لا يفهمون سبب هذا الفعل ولكنهم وقفوا يتطلعون إلى سارة التي مسحت دمها بجانب يدها وهي تبتسم..

كانت ابتسامتها مخيفة، لا يعرف عصام في تلك اللحظة لماذا شعر بهذا! وليلى لم تعطه الفرصة ليسأل أو يفهم، تملصت من يده فجأة وقفزت نحو سارة ثانية، ولكن أحمد امسك بها هذه المرة وهو يهتف بها:

- ماذا تفعلين؟! ماذا دهاكِ؟!

قالت وهي تصرخ وتحاول التخلص من قبضته:

- اتركني، هي سبب هذا كله، لقد لعبت بنا جميعًا.

رفع الجميع أنظارهم إلى سارة انتظارا لإجابتها أو لرؤية رد فعلها على هذا! لكن سارة جلست على المقعد الذي بجوار المكتب في هدوء وابتسامتها لا تفارق شفتيها! فقال عصام بتوتر:

- أعتقد أننا بحاجة إلى أن نفهم ما الذي يدور هنا؟!

فهتفت ليلى قهرًا:

- هذه الشيطانة قتلت والدي وأستاذي ولا أعلم ماذا فعلت بأمي.

كانت كلماتها كمقصلة هبطت على رأس عصام فنظر نحو ليلى في صدمة، ثم اتجه ببصره نحو سارة متسائلا عن حقيقة ما تقوله ليلى، كان قتل الرئيس بالتأكيد مفاجأة ولكن موت جده كان صدمة، وأن تكون سارة من قتلته فالصدمة أكبر..

خرج صوت سارة هادئا:

- لم أقتل أحدا، وأمك تم نقلها لقسم العناية الخاصة لحمايتها. ولتعلمي أن هذه الثورة اشتركنا فيها جميعًا وخططنا لها معًا، حدوث أشياء غير متوقعة شيء متوقع.
- قتلك لأبي كان متعمدًا، استبدلتِ الرصاصة، ما يحدث الآن في هذه المشفى من مذبحة من تخطيطك وحدك. لم نتفق على حدوث هذا أبدًا.

انطلقت سارة صارخة في وجهها وهي تنهض عن مقعدها وتواجه ليلى بقسوة لم يألفوها منها أبدا:

- ماذا كنتِ تنتظرين؟! بل ماذا أردتِ من اشتراكك معنا؟ ما أردتهِ قد تم، حتى لو أنكرتِ رغبتك به. أردتِ موت أبيكِ وانهيار ذلك النظام الظالم وتلك المشفى البغيضة. ساعدتك على فعل ما رغبتي به وتمنيتهِ، ألا استحق الشكر على هذا؟!

اخرجت ليلى صوتًا مستنكرا من أنفها وهي تقول بمرارة وحزن وألم:

- لم أرد أبدًا موته، لم أرد موت أحد. كل ما تقولينه خاطئ. كيف نقضي على الظُلم بالظُلم؟ كيف نستخدم نفس الأداة التي نستنكرها وحاربنا للقضاء عليها؟!

هزت سارة كتفيها وقالت بلا مبالاة:

- لكل معركة ضحاياها، لا توجد حرب شريفة، ولا أهداف نقية.
- هذا في نظرك فقط، نظرتنا مختلفة وأهدافنا مختلفة.

ثم أردفت وهي تتحرك خطوة للأمام وبعد أن شعرت بقبضة أحمد ترتخي عنها:

- لماذا فعلتِ هذا يا سارة؟! هناك شيء لا أفهمه!
- لحظة يا ليلى.

هتف عصام بتلك الجملة وهو يسلط أنظاره على سارة موجها باقي كلامه إليها:

- نحتاج تفسيرًا يا دكتورة سارة.
- تفسيرا لماذا؟
- لموت الرئيس والدكتور خالد وتلك الفوضى التي تعم المشفى، ولكلامك الآن مع ليلى، ألم تقولي لنا أنها خدعتنا وغدرت بنا باستبدالها الجهاز بتلك القنبلة؟!

هتفت ليلى مستنكرة:

-ماذا؟!

أشار لها عصام بيده لتصمت وهو لا زال يركز بصره على سارة وينتظر إجابتها.

كانت نظراته ثاقبة حتى أن سارة خفضت عينيها اضطرابا، ثم استجمعت شجاعتها ورفعت بصرها إليه وقالت:

- كان لابد أن يموت الرئيس، موته في وقت اندلاع الثورة سيسبب اضطرابا أشد، نحن ضعاف، لو ملكوا أمرهم لاستطاعوا هزيمتنا ودحرنا. أملنا الوحيد كان في تكبيل حركتهم وشلها. ولن تستطيع القضاء على الثعبان إلا بتحطيم رأسه. لم تكن هناك رصاصة تتسبب في الشلل أو الغيبوبة، كيف صدقتم أن الدكتور خالد اخترع شيئا كهذا وهو نزيل تلك المشفى وتحت المراقبة الدائمة؟! كان يجب أن تفكروا، ليس لي ذنبا في أنكم بلهاء.

تحرك حسان في تلك اللحظة ضاما قبضته في غضب، فامسك أحمد بكتفه ليهدئه. فاستطردت سارة قائلة:

- طاقمي الطبي اعطوا للمرضى عقارا للهلوسة سببت لهم الهياج، وتركوا لهم غرفهم مفتوحة، ولأنهم يكرهون حراسهم وأطبائهم، فمنطقي أن يكونوا هم هدفهم. ولكن قبل هذا نقلوا والدة ليلى إلى غرفة آمنة. الجهاز لم يتم استبداله، ليس هناك قنبلة، الفتيات

بخير هن وحراسهن، مسجونون فقط داخل المجال الكهرومغناطيسي، لكن المشكلة أن المجال يجب ايقافه من الداخل.

- وكيف سيخرجون؟!

كان هذا سؤال أحمد والذي عبر سريعا عن ما دار بخلدهم جميعًا نظرت إليه سارة قائلة:

- هناك طريقة واحدة، ولكني لن أخبركم بها الآن، هي ضمانتي للأمان.
- أنتِ تتلاعبين بنا!
- بل ألعب معكم اللعبة التي اخترتم بأنفسكم لعبها. ولكن بشروطي أنا وقواعدي.
- لماذا يا سارة؟!

كان هذا صوت عصام الذي خرج منه غريبا مليئا بالرجاء رغمًا عنه.

أجابته بهدوء:

- لأننا لا نستحق هذه الحياة، لا تليق بنا. لا بد من تغيير كل شيء.

- والدكتور خالد! اخبرتني أنه وضع خطة لحماية نفسه، فكيف مات؟!
- ليس هناك خطة، لأنه لا يوجد دكتور خالد من الأساس.
- ماذا؟!!

هكذا هتف كلا من عصام وليلى في صوت واحد..

- نعم لا يوجد دكتور خالد، هذا الرجل كان يقوم بدور لقنته إياه لأجعلكم تتعاونون معي. لم يكن هناك سبيل آخر لأنكم لم تكونوا ستستجيبون لي. ليلى تمتلئ بالغرور والعجرفة، وكانت تراني أقل منها، مجرد طبيبة في مشفى تحت حكم والدها الدكتاتور الكبير. برغم كراهيتها له إلا أنها تتعامل مع الجميع بنفس منطقه وبكونها ابنة الرئيس. كان لابد من مؤثر ما. رأيتها وهي تزور أمها وعرفت من هي، وبدأت خطتي في الاختمار. بحثت حتى عرفت مرض أمها وجدتها من قبلها وأنها كانت نزيلة هنا في نفس المشفى. تحدثت معها مرتين حول مرض أمها، فهمت شخصيتها فراودتني فكرة اختراع شخصية حكيمة وعميقة تمنحها الاهتمام وفي نفس الوقت الثقة لتبدأ مرحلة التأثير والتوجيه. فاخترت رجل مسن من مرضاي، في الحقيقة هو ليس

مريضا بل من المغضوب عليهم من النظام، عقدت معه صفقة، ينفذ ويقول ما أريد وفي المقابل سينال حريته. قام بدوره كما يجب وانجذبت ليلى إليه بحكم افتقادها للاب والأم معا. وبدأت تسمع له حتى جاءت الخطوة الثانية. كنا نحتاج إلى مساعدة لإكمال الخطة، رجلا قويا ولكن يجب أن يكون مخلصًا وشجاعا وله ثأرا لدى النظام. فتذكرت كلام زوجي الراحل عن أن أهالي الفتيات المتوفيات لو وجدوا الفرصة لانتقموا لبناتهن. زوجي قُتل لأنه وقف أمام النظام، لكن لم يهتم به أحد أو حتى يذكره. بحثت عن أهل الفتيات المتوفيات في آخر رحلة خصوبة. بالتأكيد لا زالت النار بداخلهم مشتعلة. عثرت على عدة أسماء، قارنت بينهم من حيث السن والقدرة حتى وصلت إلى أربع أسماء، واستأجرت محققا ليبحث ورائهم. وعن طريق المعلومات التي أرسلها لي وقع اختياري على عصام. فمن حسن الحظ أنه يتزعم مجموعة شباب للانتقام من النظام بسبب أخته، نعم كان سهل جدًا على المحقق معرفة هذا فأنتم لم تستطيعوا اخفاء هذا بمهارة كافية حتى الأمن الداخلي يعرف عنكم. من ضمن المعلومات التي أتاني بها

المحقق هي أن لعصام جد كان نزيلا في مشفى نفسي ومات ولم يره أبدًا.

ثبتت نظرها نحو عصام وهي تقول:

- بالطبع تعرف ما حدث بعد ذلك.

كانت تروي وهم ينظرون إليها غير مصدقين أن تكون تلك الوديعة هي من خطط لهذا كله!

وخرج حسام عن صمته وسألها:

- لماذا أوهمتنا بخيانة ليلى وأنها استبدلت الجهاز بقنبلة؟!
- خشيت من ضعفها ورد فعلها حين تعلم بأن الرصاصة حقيقية. كان لا بد ألا تسمعوا لها أو تصدقوها. وكنت أعلم أنها ستنقلب عليَ حين يأتيها خبر مقتل الدكتاتور. نعم هي تكرهه، ولكنه هو من يمنحها هذه المكانة كابنة رئيس مهيب. بدونه هي لا شيء وهي تعلم هذا.

عند هذه النقطة هاجت ليلى ثانية وهجمت على سارة تريد ضربها. فحجز بينهما أحمد، وتحكم فيها بقوة. فانفجرت في البكاء وركعت على ركبتيها في استسلام وحزن.

فسأل أحمد سارة:

- لماذا إذًا اشتركت معكِ منذ البداية في الثورة ضد والدها؟!
- لأنني عن طريق الدكتور خالد المزعوم أقنعتها أنها ستكون رئيسة الدولة خلفًا لوالدها. وأن الشعب سيحبها حين تظهر أمامه بمظهر بطولي وثوري ضد ظلم والدها وبأنها هي من أعادت الفتيات وانقذتهم بعد خطف النظام لهن. ستقنع الناس أن النظام كان يسعى لابتزازهم. فبدلا من فرض الضرائب سيوهمهم بخطف بناتهم من قِبل عصابة دولية ويطلب منهم مساعدته في دفع الفدية. بالطبع الفكرة ساذجة ولكن لأن دكتور خالد هو من أقنعها بها فبدت خطة عبقرية وصدقتها.
- لماذا تكشفين وتسلمين لنا أوراقك كلها الآن يا سارة؟

كان هذا سؤال عصام بعد أن استجمع نفسه وتركيزه بعيدا عن الغضب الذي قد يعميه فلا يتصرف بشكل سليم.

- لا، لم أسلم لكم أوراقي كاملة. لا زلت احتفظ بورقتين؛ أولهما الفتيات، ثانيهما الملف الذي اخذته ليلى من خزينة قصر الدكتاتور.

رفعت ليلى إليها رأسها حيث كانت لازالت جالسة على الأرض، فأكملت سارة:

- هذا الملف الطبي كان به تقارير صحية تخصه وتؤكد على أنه في أيامه الأخيرة، لم تفهم ليلى تلك التقارير فسلمتها إلى دكتور خالد الذي سلمها لي بدوره، وقمت منذ قليل بنشره في الانترنت. ولكن كان هناك تقريرا آخر لم تلاحظه ليلى لحسن الحظ. هذا التقرير يؤكد أن المرض الذي أصيبت به أُم ليلى وجدتها مرض عقلي وراثي، أي أن هناك احتمال يصل إلى سبعين بالمائة أن ليلى ستصاب به.

كان هذا الخبر أقصى ما يمكن لليلى احتماله، ماجت بها الأرض واضطربت واسودت الدنيا في لحظة وسقطت مغشيًا عليها، لتنهي بهذا العرض القاسي الذي قامت به سارة للتو.

هرع إليها حسان وحسام يحاولا افاقتها، ووقف الباقون ينظرون إليهم في قلق وتوتر، ولم يكن يدر أي منهم ما الذي سيحدث في الدقيقة القادمة وبعد هذا الكم من المفاجآت والصدمات وأشدهم حيرة وقلق وغضب وحزن كان عصام. كيف خدعته سارة بهذا الشكل؟! أين كان عقله وهو يرى تلك العلامات ولا يلتفت إليها..

بدأت ليلى في استعادة وعيها وبدى كأن سارة تنتهز تلك الفرصة لترمي بحجر النرد الرمية الأخيرة:

- طبعًا هذا التقرير لو ظهر للناس..

وقبل أن تُكمل اسكتها عصام حين هتف باسمها، فصمتت بالفعل، يكفي ما تعانيه ليلى الآن..

اتكأت ليلى على ساعد حسان ونهضت واجلسها على أقرب مقعد لتسترد وعيها بشكل كامل، ثم التفت إلى سارة وقال بغضب:

- من أين جاءتك كل تلك القسوة؟!
- منكم، لا يدعِ واحد منكم البراءة، كلكم أنانيون، لا تحاربون الظلم كما تدعون، بل تحاربون اشباحكم، لا يشغلكم سوى أنفسكم. لكل منكم هدف خاص به، لم تثوروا إلا عندما تأذيتم، لكن زوجي كان يشغله أنتم، وأنتم لا يشغلكم سوى أنفسكم. ضحى بحياته من أجل الجميع، والجميع لم يشعر به. قتلوه يوم عرسنا، فهل تحرك أحد منكم؟ هل حزن عليه أحدكم؟ لكل منكم قضيته الخاصة التي يحارب من أجلها، وأنا مثلكم، فعلامَ تلوموني؟!
- على تلاعبك بنا، على اخفائك الحقائق عنا، على القتل وسفك الدماء غير المبرر الذي يحدث هنا وفي الشوارع الآن. على هاتهِ الفتيات المسجونات ولا نعرف كيف سيخرجن، وهل هن بخير أم

لا. ما فعلتهِ بشع. موت شخص واحد لا يستحق تقديم كل هذه القرابين من أجله.

كان حسان يصرخ بهذه الكلمات في انفعال وهو يواجه سارة ويركز في عينيها بنظرة غاضبة مهتاجة، وبدى كأنه أوشك على مهاجمتها وقتلها. ولكن همدت ثورته فجأة حين سمعوا صوت صراخ واستغاثة باسم سارة! اعقبه دقات متصلة على الباب بعنف. اتجه عصام إلى الباب وفتحه فتحة بسيطة فاندفعت فتاة إلى الداخل والدماء تغطي ظهرها ولمح عصام شخص هائج يتبعها وفي يده مقص فاغلق الباب سريعًا قبل أن يصل إليه. سقطت الفتاة أرضًا، فهرعت إليها سارة وهي تصرخ باسمها:

- مي

كان من الواضح أنها تحتضر، فالطعنات كانت كثيرة، ولكنها نظرت نحو سارة حين قلبتها على ظهرها ووضعت رأسها على رجليها:

- سارة.. الحمد لله أنكِ بخير، جئت لأطمئن عليكِ.

كان صوتها واهنًا، يخرج ضعيفًا، وسارة تبكي بحرقة وألم ثم تحول البكاء إلى صرخة مدوية حين سكن جسد الفتاة ورقدت دون حراك..

وقف الجميع في خشوع وحزن وهم يرون سارة وهي تحتضن جسد مي وتبكي بلوعة، لم يقطع هذا المشهد الحزين سوى صوت ليلى حين قالت:

- إنها أختها الصغرى، يبدو أن هناك عدالة بالفعل.

توقف المشهد بهم للحظات ونشيج سارة يشق السكون كسكين حاد ومؤلم.. شد عصام على قبضته ليمنح نفسه القوة ويخرجها من أتون الاستسلام والحزن ووجه نظره نحو أصدقائه قائلا:

- لابد من إيقاف تلك المذبحة والسيطرة على هؤلاء المرضى لحين انتهاء تأثير العقار وانقاذ من تبقى من العاملين. من منكم سيذهب معي؟

هتفوا في صوت واحد:

- أنا.

واتجهوا جميعا نحو الباب، فاستوقفتهم ليلى متسائلة:

- وماذا سأفعل أنا؟!

أجابها عصام:

- ستبقين هنا مع سارة حتى نعود.

ثم فتح الباب وقبل أن يعبره سمع سارة تهتف بهم:

- انتظروا..

التفتوا إليها فقالت وهي تغالب دموعها:

- اذهبوا إلى المخزن في الطابق الأرضي بواسطة سلم الطوارئ فهو أأمن، ستجدون صناديق عليها علامة تشبه السحابة الصغيرة، بداخلها عبوات سبراي لغاز منوم. استخدموها في السيطرة على المرضى.

فالتفت حسان إلى عصام وقال بصوت خافت:

- سنثق بها بعد ما فعلته؟

أومأ عصام برأسه وقال في حسم:

- نعم.

وخرج من الباب بحذر وتبعه الباقون، واتجهوا إلى السلم الخلفي..

هبطوا الدرج سريعًا واصبحوا أسفله، فاتبعوا العلامة التي تشير إلى المخزن، وبالفعل وجدوا تلك الصناديق التي تحدثت عنها سارة، فحمل كل واحد منهم ثلاث عبوات وعادوا إلى الدرج صعودا. ودلفوا إلى الطابق الأول، فرأوا اثنان يحاولان اقتحام احدى الغرف التي يبدو أن بداخلها بعض الأفراد، فبادروهم برش

المنوم في وجوههم فسقطوا أرضًا. فهتف عصام بمن بالداخل أن يخرجوا فالمكان آمن، وبعد دقيقة فُتح الباب فظهرت ممرضتان ترتجفان خوفا، اعطى عصام كل منهما عبوة اسبراي وأشار لهما نحو درج الطوارئ ليهبطوا منه ويخرجوا من المشفى. وطلب من حسام مصاحبتهما لتأمين حديقة المشفى، واكمل هو وحسان وأحمد الصعود لباقي الطوابق. استمرت عملية السيطرة والانقاذ حوالي الساعتين، تم فيهم تنويم كافة المرضى المهتاجين، وتشكيل فريق من الممرضين والمساعدين والأطباء والأمن الذين تبقوا على قيد الحياة أو بدون اصابات، بحمل المرضى النائمين وحبسهم في الغرف، ونقل المصابين إلى غرف أخرى لمداواتهم وحمل الجثث خارج المشفى. فالبلد في فوضى ولن يستطيعوا التواصل مع قوات الأمن أو أي مسؤول، لهذا فعليهم العمل منفردين.

أرسل عصام حسان إلى سارة وليلى للاطمئنان عليهما واستدعائهما للخروج من المشفى بعد استتباب الأمن بها وتولي كل شخص مهمته. ليتموا هم مهمتهم خارج المشفى، حيث انقاذ ما يمكن انقاذه..

بدت سارة محطمة تمامًا. ولكنها كانت تسير معهم في استسلام ذاهل. خرجوا جميعًا من المشفى واستقلوا سيارة حسان وانطلقوا ليجتمعوا بباقي الفريق في مقرهم. مرت بهم جحافل المتظاهرين ورأوا بأعينهم حجم الخراب الذي قاموا به، حيث تم اشعال النار في أقسام الشرطة ومقرات الأمن والشركات الحكومية والهيئات التابعة لها وتحطيم واجهات المحلات واقتحام معظمها وسرقته. كان شعور الحزن والأسى والغضب يعصف بقلوب الجميع، سواء عائلات الفتيات الثائرون أو الشباب الناقم على النظام أو المجتمعون في سيارة حسان أو حتى النظام وأفراده. الجميع في حالة حزن وغضب ولا أحد مستفيد مما يحدث سوى اللصوص الذين استغلوا ما يحدث لنهب ما يقدروا على نهبه.

وصلت السيارة إلى المقر، واستقبلتهم سالي، فبادرها عصام بالسؤال عن البقية. فأخبرته أن ميرو في شقة المراقبة، وصوفيا تجلس إلى الحاسوب تتابع ما يحدث مع عادل، ورؤوف لم يعد بعد منذ خروجه مع المظاهرات. شعر عصام بالقلق على رؤوف خاصة بعد ما رآه في الطريق، ولكنه لم يشأ أن ينقل قلقه إلى الباقين، فطلب من سالي وصوفيا الاهتمام بسارة وأخبرهما

سريعا بوفاة أختها. ثم طلب من حسام أن يحاول الاتصال برؤوف وأن يطلب منه العودة. ثم أشار لأحمد وحسان ليتبعوه واتجه حيث يجلس عادل برفقة الحاسوب، وبادره بالسؤال:

- ما الأخبار يا عادل؟
- اختفى النظام، فلا شرطة ولا جيش! الشعب يفعل ما يريد. أظن أننا قضينا على النظام أسرع مما توقعنا. بثثت أخبار نارية تسببت في هياج الناس أكثر وأرسلت لرؤوف ومن معه أسماء الأماكن الحيوية وعناوينها ليتم السيطرة عليها.
- وأين وصل رؤوف الآن؟
- للأسف انقطعت أخباره منذ ثلاث ساعات، آخر اتصال بيننا سمعت فيه اطلاق نار واخبرني أن هناك بعض أفراد الشرطة يقاوموهم وأن عددهم قليل. ثم فقدت الاتصال به فجأة ومن وقتها وأنا انتظر منه رسالة أو اتصال.

زاد قلق عصام أكثر ونادى على حسام وسأله إن كان استطاع الاتصال برؤوف ولكنه اخبره أن هاتفه مغلق.

فنظر أحمد إلى عصام قائلا:

- لا بد أن يذهب أحدنا للاطمئنان عليه. وأرجو أن تسمح لي أنا بهذا.
- حسنًا يا أحمد اذهب، ولكن كن على اتصال دائم بنا ولا تعرض نفسك لأي خطر. خذ سيارة حسان.

اومأ أحمد برأسه موافقًا واتجه مباشرة نحو الباب، وتبعه عصام بعينيه وهو يدعو الله له بالسلامة. وانتبه إلى أنه ولأول مرة في حياته يدعو الله! وبرغم دهشته من نفسه إلا أنه شعر بارتياح وكأنه وصل أخيرا إلى بر أمان بعد طول غرق. ذهب الخوف واحساس الوحدة والريبة، الآن يشعر بأن هناك من يرعاه ويراقبه ويستطيع أن يلجأ إليه ويدعوه إن شعر بالخوف والعجز، لم يعد وحده فالله معه..

نظر حوله ووزع نظراته بين رفاقه وتمنى لو يتحدث معهم الآن عن الله وأنه وجده ووجد نفسه معه، ولكن كل منهم كان مشغولا؛ عادل يتابع الأخبار واللقطات المرئية للثورة على الحاسوب، وصوفيا وسالي يجلسان بجوار سارة ويحاولان مواساتها، وحسان يتحدث مع ليلى..

- أعلم أنكِ حزينة لموت والدك وخديعة سارة، ولكن يجب أن تتمالكين نفسك لنجتاز جميعا تلك الأزمة.
- كيف تجتاز حقيقة قتلك لوالدك وفقدك لوالدتك، وأنك وحدك على وشك الجنون؟ لن تشعر بما أشعر به حتى تقف مكاني.
- لستِ وحدك، نحن معكِ. أنا معكِ.. موت والدك ليس ذنبك، تم خداعك ومسألة جنونك الوشيك ليس مؤكدًا. لا دليل على كلام سارة، ولا تنسِ أنها سبق لها الكذب علينا. ليلى تماسكي أرجوكِ.
- وما أهمية أن اتماسك! ما أهمية ليلى لأي كائن على هذه الأرض؟
- أنتِ مهمة أكثر مما تتخيلين.
- مهمة لمن؟!
- لي..

هذان الحرفان حين نطق بهما كانا كقطرات المطر حين تتساقط على أرض جدباء فتحييها. لم يقل "أحبك" لم يلقِ عليها قصائد أو عبارات طويلة ووصف دقيق لمشاعره. فقط حرفان ونظرة دافئة جمعوا لها العالم كله بأغانيه وموسيقاه وقصائده ومشاعره وشخوصه في تلك المسافة الصغيرة جدًا التي تفصلها عنه. وتحولت تلك اللحظة لعالم كامل من السحر، حيث يصبح طوق

نجاتك هو ذاك الشعور الدافئ الذي يمنحه لك أحدهم ويخبرك من خلاله أنك لا زلت على قيد الحياة وأنك لست وحدك.

وقبل أن تجيبه أو حتى تستوعب تلك الينابيع المتدفقة داخلها نحوه أعادها صوت عادل إلى الواقع حين صرخ هاتفا:

- رؤوف..

التفتت وجوه الجميع نحوه، وهرعوا ليشاهدوا بأنفسهم مشهد أوقف دماء الحياة في عروقهم.

كان رؤوف ممددًا على الأرض وصدره مصبوغ باللون الأحمر.

كانت اصابة مباشرة في القلب برصاصة من قناص وكانت علامات الاحتضار على وجهه..

وقبل أن يتحرك أحد أو يستوعب ما حدث سكن الجسد المتألم وانتهى كل شيء..

وكأن موت رؤوف هو القربان الاخير الذي كان لابد من تقديمه ليستفيق الجميع على حقيقة ما فعلوه.

توقفوا برهة في حزن، وتساقطت دموعهم في صمت..

بعض مواقف الحياة تكون كمرآه عاكسه، يرى كل إنسان فيها نفسه على حقيقتها.

موت الرئيس كان مرآة ليلى، وموت مي مرآة سارة، وموت رؤوف مرآتهم جميعًا. هكذا نخلق الشر ونغوص في أوحاله ولا ننتبه إلا بعد موت جزء منًا..

استيقظوا جميعًا على صوت رنين هاتف عصام، وكان المتصل أحمد:

- لا أجد رؤوف يا عصام، ولا أعرف أين أبحث فالموت والفوضى في كل مكان أذهب إليه.
- عد يا أحمد، وجدنا رؤوف.
- أين؟!
- مات..
- .....

****

كان رؤوف يحاول هو ومن معه اقتحام مبنى الأمن القومي، ففوجئوا بوابل من الرصاص في اتجاههم، بادلوهم الطلقات دفاعا عن أنفسهم مع اشارة رؤوف لهم بالانسحاب. ولكن أصيب أحدهم فأثار هذا غضب البقية فعادوا للهجوم وهم يسددون طلقاتهم بغية

القتل. ولم يلتفتوا لهتاف رؤوف بالتراجع فاضطر للانضمام إليهم في الاقتحام بعد أن سقط آخر بجواره. تعلق بزاوية أحد النوافذ القريبة منه مستغلا غطاءً جيدا من تبادل اطلاق النار، وألقى بنفسه إلى الداخل، وفتح الباب بهدوء وسار في ردهة طويلة ليصل إلى النافذة التي كانت تأتيهم منها الطلقات. وبشكل مباغت دفع الباب بقدمه فانفتح مسببا اضطرابا في الجنود والذين كان عددهم ثلاثة، فسقط واحد منهم أثر رصاصة غادرة جاءته من خلفه من ناحية النافذة التي أعطاها ظهره لمواجهة رؤوف، والثاني سارعه رؤوف برصاصة قبل أن يضغط على زناد مسدسه، فأسرع الثالث بإلقاء بندقيته أرضًا ورفع يديه مستسلما..

وقف رؤوف لحظة ينظر إليه بعد استسلامه وعينيه يملأها الخوف والانكسار. إحساس القوة الذي شعر به رؤوف في تلك اللحظة جعل الأفكار تدور في رأسه عن معنى القوة الحقيقي. هل هي التنكيل بالعدو أم في العفو عنه؟! هل لو قتل هذا الشاب الآن يصبح هو الأقوى أم الأضعف؟ "قتله سهل لن يكلفني سوى ضغطة زناد، ولكن مقاومة رغبتي في قتله أصعب. هو جزء من هذا الكيان الذي نحاربه، وشارك في قتل رجلين من رجالي، ولو

فشلت الثورة سيشارك في التنكيل بنا جميعا، من الحكمة قتله ولكن من القوة تركه، اختلفت الأدوار الآن فهل ستختلف المواقف أم نصبح مثلهم؟!" كل هذه الأفكار دارت في رأس رؤوف وهو لازال مصوب مسدسه نحو الجندي وينظر في عينيه المرتعبة المترقبة. وحسم رؤوف رأيه وخفض يديه وترك الغرفة بهدوء خارجا من المبنى وهو يشعر بالقوة الحقيقية..

ولكن بعد خروجه من المبنى وفي اتجاهه نحو الطريق شعر بشعلة نار تخترق ظهره. فالتفت دون وعي لينظر إلى مصدر الرصاصة فرأى الجندي الذي عفى عنه يحمل بندقيته ويقف في ذات النافذة، التقت أعينهما فأرداه بالرصاصة الثانية حيث سقط أرضًا وذاكرته تستعيد أجمل ذكرى من إنسان وعده ألا يتركه وحيدا، فاحتضنت عيناه وجهها وأغلقت جفنيها عليه للمرة الأخيرة.. وكاميرة أحد المراسلين تصوره بعد أن سمع بتبادل اطلاق النار في هذا المكان فسارع ليسجل كل ما يحدث. وهذا ما رآه الجميع على الهواء مباشرة.

الفصل العاشر

ليس على الأرض شر مُطلق، ولا خير مُطلق. الأرض وعاء لكل مزيج ومسرحًا لكل الأدوار، وطريق مُلتف حول كل شيء.

- سارة، كيف ننقذ الفتيات؟ من فضلك اخبرينا، لا شيء يستحق أن يموت كل هؤلاء من أجله.

رفعت سارة رأسها إليه والدموع في عينيها لم تجف:

- في الجهاز مؤقت للتدمير الذاتي، سيدمر نفسه بعد يومين.
- وهل سيستطيعون الصمود هذه المدة؟ هل لديهم طعام كافٍ؟

أومأت برأسها وهي تقول بإرهاق:

- نعم، كما أن بجوارهم نهر يستطيعون الشرب منه وبعض النباتات الصالحة للأكل تنمو على ضفافه. وقد أريته لقائد الحرس قبل هروبنا لهذا الغرض.

تنهد عصام وهو يقول:

- الحمد لله، إذا علينا الاهتمام الآن بإيقاف ما يحدث في الشوارع. يجب أن نعلن عن أن الفتيات بخير وسيعدن بعد يومين.

حسان: وكيف سنفعل هذا ومن سيصدقنا؟!

سالي: علينا الوصول إلى قنوات البث الرئيسية واذاعة هذا الخبر مع دليل عليه. ولكن ماذا سيكون الدليل ليصدقونا؟!

عادل: سارة هي الدليل، تخرج بنفسها وتخاطب الجميع، فالكل رآها وهي تصطحب الفتيات في الرحلة ويعلمون أنها رئيسة الوفد الطبي. وطالما هي على قيد الحياة فالفتيات بخير.

عصام: وكيف ستفسر عودتها وبقاء الفتيات؟!

سارة: سأروي كل ما حدث بالتفصيل، لم يعد هناك ما أخفيه. الحقيقة ستفرض نفسها على الجميع.

عصام: هذه مخاطرة، سيكرهونك وربما يطالبون بمحاكمتك.

صوفيا: من الذي سيحاكمها؟! النظام سقط والشعب سيفرح بعودة بناته وسقوط النظام. ما فعلته سارة وما فعلناه كان له هدف نبيل وغاية عظيمة.

دار في رأس عصام في تلك اللحظة كلمات والده حين قال له

"أخشى أن تكون أكثر شرًا منا" تنهد بقوة وفهم الآن معنى هذه العبارة..

عصام: ليس هكذا تتحقق الأهداف النبيلة ونصل إلى الغايات العظيمة. ما فعلناه هو وجه آخر للظلم والفساد الذي قمنا بمحاربته.

صوفيا: وماذا كان بيدنا أن نفعل غير هذا؟

عصام: كنا نستطيع أن نبدأ في تغيير أنفسنا ثم توعية الآخرين وتغييرهم، ربما لن ننجح بتغيير الجميع ولكن على الأقل نكون حاولنا ولم نكن تسببنا في صنع كل هذا الموت.

فكر الجميع في كلمات عصام، كانت كالمطارق على أبواب عقولهم، وصفعات على قلوبهم.

سالي: وما العمل الآن؟!

نهض عصام وهو يقول بهدوء عجيب لا يتناسب مع ما يشعرون به من حيرة وحزن:

- نوقف هذا كله، ثم نبدأ من جديد.
- ومن أين نبدأ؟

- من أنفسنا، علينا أن نتغير نحن ونكن نواة لثمرة جيدة.

اتفقوا على الانتظار لحين عودة الفتيات بعد يومين، وتم استدعاء ميرو بعد عودة أحمد، وكان قدوم ميرو مجددا للحزن على رؤوف حين علمت بموته، بكاؤها عليه أعاد لهم احساسهم بفجيعة الفقد؛ فقد كل ما أحبوه وسعوا إليه. لم يكونوا يعلمون بتعلق ميرو برؤوف، وكان حزنها عليه مؤثرا، لم تقل شيئا ولكن دموعها الصامتة تكفي لتغرق أفكارهم في دوامة الحزن.

"*هل تعلمين أنني لم أعد أشعر بالوحدة؟! برغم المخاطر التي نسير فوقها وتحيط بنا إلا أنني أشعر بالراحة، فشعور الوحدة كان أقسى.*

- *لن تشعر بالوحدة ثانية، اعدك بهذا*"

مر ذاك الحوار القصير بأفكار ميرو، فشعرت بغصة في قلبها وكانت روحها تغوص في نظرة عينيه حينها. وعدته أنه لن يكون وحيدا، كانت تقصد شيئا والقدر ترجم كلماتها لشيء آخر.

•••

****

في المساء رقد الجميع بعد وقت طويل من المناقشات والترقب والقلق

وقبيل الفجر بلحظات استيقظ عصام وخرج من الغرفة ليتجه إلى الحمام، وفي طريق عودته لمح ظلا يجلس في الشرفة! وحين دقق النظر تأكد أنها سارة. فذهب إليها في خطوات خفيفة هادئة خشية أن يفزعها:

- مازلت مستيقظة؟

التفتت إليه وقالت بصوت منخفض:

- حاولت النوم وفشلت.

جلس بجوارها وشاركها النظر إلى خارج الشرفة في صمت. وبعد دقيقتين سمعها تقول:

- عصام، أريد أن أعترف لك بشيء، ولك مطلق الحرية في إخبار ليلى والآخرين إن أردت.

نظر إليها في اهتمام ولكنه لم يتكلم، فاستطردت:

- تعرفت على زوجي في تلك المشفى التي أعمل بها الآن، وبعد مقتله شعرت أنهم يراقبونني، ربما ليعرفوا مدى معرفتي بقاتله أو مدى إخلاصي لهم. كنت أعلم أنهم اعتبروه متمردا لهذا قتلوه دون الكشف عن هويتهم أو السبب، ولكنني كنت أعلم. وقررت

أن أستفيد من تلك المراقبة بعد أن تمالكت نفسي وخططت للانتقام.

بتؤدة وبطء بدأت أكتسب ثقتهم، وبعد أن اكتشفت أن أُم زوجة الرئيس نزيلة المشفى وأن تلك المرأة التي تأتي لزيارتها متخفية هي ابنتها، اختمرت خطة الانتقام بشكل كامل. سعيت للتعرف على زوجة الرئيس من خلال الحديث عن مرض أمها والانصات لها ولحزنها عليها. ثم اقنعتها بأخذ أقراص مهدئة أعطيتها لها، وفي حقيقتها كانت أقراص تؤثر على حالتها العقلية وتزيد من اكتئابها، بالطبع كانت علبة الدواء مزيفة ومحتواها غير ما كُتب عليها من الخارج وكنت احرص على إمدادها بعبوة جديدة كل شهر بحجة أنها لن تستطيع شراءه من أي صيدلية فهو خاص بالمشفى فقط. وبعد ثلاثة أشهر بدأ العد التنازلي لها، وبدأت حالتها في التدهور خاصة بعد وفاة والدتها، زادت من نفسها جرعة الدواء وأصبحت تطلبه مني قبل مرور الشهر. ووصلت إلى مرحلة الانهيار الكامل وأخيرا أصبحت مريضة في نفس المشفى، بل في نفس غرفة أمها. قبل أن تسألني لماذا فعلت هذا سأخبرك أن هذا الحاكم سلبني من أحب، فمن العدل أن أسلبه من

يحب. ثم جاءت ليلى لتزور أمها، وبدأ شيطان الانتقام يلعب لعبته الثانية معي، لم أشعر بأن الحاكم تأثر بمرض زوجته لهذا لم يشعر شيطاني بالرضا، وحين رأيت ابنته علمت كيف أرضيه. وبدأ الجزء الثاني من خطتي، والذي تعرفه الآن باستثناء شيء واحد، وهو أن ليلى ليست مصابة بمرض جدتها وأمها لأنه ليس وراثيا كما أخبرتك الآن.

وصمتت.. كان عصام ينصت إليها مشدوها! كيف يمكن لهذا الوجه البريء أن يصنع كل هذا الشر؟!

رمقته بطرف عينيها وانتظرت تعقيبه ودمعة صغيرة تتعلق بأهدابها تريد أن تسقط، ولكنه لم يتكلم! ظل ينظر إليها وقطيع كامل من الأفكار الثائرة يركض داخل رأسه..

- قل شيئا.
- وهل سيصنع هذا فرقًا؟
- ربما لك ولهم لا، ولكن لي نعم.
- بالتأكيد لن تسمعي مني شيئا يخفف عنكِ، فما فعلتهِ بشع. هو سلبك حياة زوجك وسعادتك، ولكنك سلبتي الحياة من امرأتين ليس لهما أي ذنب. هل كنتِ تعاقبينه أم تعاقبيهما؟!

- كنت أعاقبه هو؛ أسلبه كل ما يحب كما سلبني كل ما أحب. أسلبه زوجته وابنته وحياته وعرشه.
- كالعادة نصنع عدل زائف حين تسلبنا الصدمة بصيرتنا ويظلم نور قلوبنا. كيف ملكتِ تلك القدرة على الخداع؟ حتى أنني وقعت أسيرا لكِ ولوجهك الملائكي.

تعلقت عينيها بعينيه حين قال هذا، لمحت غيمة سوداء من الحزن تدور وتحجب نظرته اللامعة التي اعتادت عليها، كانت نظرته منطفأة ككل شيء حولها الآن..

- لا تكرهني.

قالتها برجاء، فشعر بغصة في قلبه، تدحرجت دمعة من عينيها وسالت على وجنتها فشعر بالغصة وقد أصبحت قبضة تلكم قلبه بقوة.

- لا أستطيع أن أكرهك.

لا تعرف حقيقة ما تشعر به الآن، كان مزيجا من كل شيء وغارقا في كل شيء.

- هل ستخبر ليلى؟

- لا، لا داع لأن تعرف شيئا من كل هذا. فقط يجب أن تعرف أنها لا تحمل مرض أمها وهذا يكفي لتنعم بحياتها القادمة.
- وكيف ستعرف هذا دون أن تعرف بما فعلته بأمها؟!
- أنتِ طبيبة وذكية، ستجدين طريقة ما.

تنهدت وهي تومئ برأسها علامة الموافقة..

****

بعد يومين عادت طائرة رحلة الخصوبة بأمان وأُعلن عن ذلك أملا في تهدئة الناس، فعمت موجة من الفرح واندفع ذويهم إلى المطار لاستقبالهم، كان المشهد رائعًا وخاتمة جميلة لوقت عصيب، ولكن تم تسريب خبر اغتيال الرئيس، فزحف بعض الثوار نحو قصر الرئيس واقتحموه وسحلوا كل من وجدوه في طريقهم. بحر الدم لازال يجري ويثير العطش أكثر في كل من يمر به..

- فكرة ظهور سارة الآن ليست جيدة على الإطلاق، سيقتلونها بالتأكيد.

هكذا قال أحمد بعد أن وصلت إليهم أخبار الاقتحام والقتل.

فأجابه عصام:

- البنات تحررن الآن! وعدن إلى ذويهم، فلماذا لم يتوقفوا؟!
- لأنهم يملكون ألا يتوقفوا، شعور القوة الذي يشعرون به الآن هو الذي يقودهم.

وقبل أن يقول أحمد شيئا سمعا عادل ينادي الجميع لرؤية هذا الخبر العجيب!

القائد ياسر الألفي - قائد رحلة الخصوبة – يقف في شرفة قصر الرئاسة وحوله بعض الجنود ويلقي بيانا..

" أيها الشعب الكريم، لقد تعرضنا لخيانة كبرى وخديعة مريرة من قِبل النظام البائد؛ أمرونا بقتل فتياتكم ولكننا رفضنا تنفيذ الأمر وفررنا بهن حتى علمنا بثورتكم المجيدة فعدنا بسلام. أرواحنا فداءً لكم، ولم نكن لنقبل أبدا أن يمس بناتنا أذى. وسوف نقوم بعقاب كل من سولت له نفسه أن يؤذيكم ولكي نقوم بمتابعتهم والقبض عليهم ومحاكمتهم أتمنى أن تقبلونني رئيسا مؤقتا لهذه البلد العظيمة حتى نأخذ بالقصاص من المجرمين ويعود العدل والأمان على هذه الأرض الطاهرة، وأطمئنكم أنه لن تكون هناك رحلات خصوبة مرة أخرى، أنه عهد جديد وحياة أفضل للجميع"

أعقب كلماته هتافا من الجنود ثم هتافا من الجماهير المتجمعة حول القصر، كان واضحا أن الشعب صدقه واعتبره بطلا لأنه أنقذ بناته من الموت وخالف الأمر بقتلهن! وهتاف الجنود حفزهم على ترديد الهتاف بشكل تلقائي وهكذا اختار الشعب رئيسه الجديد!

تجول عصام بنظره في وجوه أصدقائه ليعرف وقع ما حدث عليهم، فوجدهم جميعا في حالة ذهول..

وكانت سارة أول من خرجت من ذهولها وقالت بهدوء مُر:

- هل تعلمون ماذا يعني هذا؟

لم تدعهم يجيبوا وأكملت:

- أن كل ما قمنا به التف كالثعبان حولنا ليعصرنا وأصبحنا فريسته. نحن الآن مُطاردون!

هتفت ليلى:

- لا، مستحيل أن نسمح بهذا. يجب أن نكشف للناس الحقيقة، هذا المحتال الكذاب لا يجب أبدا أن نتركه ينتصر.

التفتت اليها سارة في حزن:

- وما الذي بيدنا نفعله؟ دكتاتورنا الجديد أذكى منا، التف علينا وانقض على أعناقنا. وبالتأكيد سيبحث عنا في كل مكان ليؤمن عرشه من أي خطر. هو في نظر الشعب بطل مُنقذ وقائد قوي. وماذا نكون نحن؟! خونه وعملاء للنظام البائد ومشاركين في محاولة التخلص من بناتهم.

قالت هذا وتنهدت ثم جلست على أقرب مقعد لها وغرقت في أحزانها..

تشعر الآن بعبثية كل ما قامت به، خسرت الكثير وهي تطارد رغبتها في الانتقام حتى خسرت كل شيء. "كانت خطواتها خاطئة منذ البداية، عليها الآن أن تعترف بهذا "هذا ما قالته لنفسها وجاهدت ألا تفضحها دموع عينيها به"

- عصام، ما العمل؟!

كان صوت أحمد المليء بالحيرة اشارة للجميع لتلتقي نظراتهم عند عصام، قائدهم الآن بعد أن فقدت ليلى زعامتها وسارة مصداقيتها.

وكان عصام مثلهم يغرق في بحر الحيرة ويجاهد ليصل إلى الشاطئ، ولكن هل يوجد شاطئ؟!

- علينا أن نختبئ حتى نصل إلى فكرة ما، نحتاج إلى وقت للتفكير. ولكن أين نذهب؟ لا أظن هذا البيت آمنا، فسيصلون إليه لو ربطوا بين سارة ودكتور خالد لأن هذا بيته، أليس كذلك؟

والتفت إلى سارة وانتظر الإجابة.

أومأت سارة برأسها علامة الموافقة وقالت ببطء:

- نعم هذا بيت الدكتور خالد الذي تعرفونه، اسمه الحقيقي يونس، كان مهندسا زراعيا، وحين غضبوا عليه اتهموه بالجنون واودعوه المصحة منذ سنوات. بالتأكيد سيبحثون عنا في كل مكان محتمل ومن ضمنها هذا البيت، ولكن يوجد قبو سري يؤدي إلى بيت صغير اسفله، لن يستطيعوا الوصول إليه ونستطيع الاختباء فيه.

لمعت عين حسان ونظر إلى عادل وقال بصوت منخفض:

- النعناع!

ثم التفت إلى صوفيا وسالي وأردف:

- هذا مكان اختبائكن، والنعناع أنتن من زرعتموه. ولكن من أين أتيتن بهذه العشبة؟!

أجابته صوفيا:

- وجدنا بذورها في القبو.

قاطعهما عصام:

- حسنا، لننقل كل ما قد يدل علينا إليه، ثم نجلس في هدوء لنفكر في خطوتنا القادمة.

سارع عادل قائلا:

- ليس علينا أن نختبئ، لا أحد يعرفنا، يعرفون سارة فقط، والفتيات يستطعن العودة الآن إلى ذويهن فرحلات الخصوبة تم إلغائها.

هتف حسان:

- هذا صحيح، سارة هي الدليل الوحيد الذي ممكن أن يقودهم إلينا، بقطع هذا الخيط نكون في أمان.

ظهر شبح ابتسامة على وجه سارة وهي تقول:

- قطع أم قتل؟ أظن أنكم تفكرون الآن في قتلي.

نظروا إلى بعضهم وكان عادل أول المتحدثين:

- لن تترددي في قتلنا لو كان هذا هو سبيل نجاتك. لا تنتظري منا أن نكون ملائكة مع الشيطان.
- لست شيطانا، ولكن تريحكم تلك الفكرة عني لتتخلصوا مني بضمير مستريح.

أجابها عادل:

- ما فعلتهِ يستحق العقاب، وحياتنا الآن مقابل حياتك.

قال هذا وتقدم نحوها خطوة، فهرعت ليلى تقف أمامه وتصرخ في وجهه:

- ليست سارة وحدها الدليل، عصام وحسام وأحمد كذلك، أنسيتم أن قائد الرحلة والجنود رأوهم معها؟ تنكرهم كان بسيطا سيصلون إلى حقيقتهم سريعا خاصة أن لهم ملفا في الإدارة الأمنية بأنهم أعضاء جماعة لمناهضة النظام، وسيدلهم هذا على باقي المجموعة.

ما قالته صحيحا، لهذا صمت الجميع في تفكير، ونظرت سارة إلى ليلى في امتنان ممتزج بحزن شديد..

وقطع لحظة الصمت هذه عصام حين قال:

- حسنا، ليس أمامنا سوى الاختفاء كلنا ما عدا الفتيات؛ فهن يستطعن العودة لأهلهن.

تنهدت صوفيا قائلة:

- لمن سنعود؟
- أولستن هاربات بسبب رحلات الخصوبة ولديكن عائلات؟!

تبادل الفتيات النظر مع سارة التي قالت في هدوء:

- لا، لسن هاربات، هن من تبقى من أسرهن الذين راحوا ضحية للنظام، والديهن كانوا مناضلين وتم قتلهم من قِبل النظام بتهمة الخيانة. هن منبوذات ولسن هاربات، عرفني عليهن زوجي قبل مقتله لأساعدهن حيث كان يعرف أباءهن. ولكن أخبرناكم بأنهن هاربات من رحلة الخصوبة حتى لا تسألوا عن تفاصيل كثيرة ويضيع الوقت.

ابتسمت سالي في خجل وهي تقول:

- أي أننا معكم، فلا أحد ينتظر عودتنا.

سأل أحمد في حيرة:

- حسنا، ماذا ستكون خطوتنا القادمة؟

أجابه عصام:

- التغيير، نكون نحن نواة لتغيير حقيقي ومجتمع جديد، بدأ العالم كله برجل وامرأة فقط، نستطيع أن نكّون مجتمع أكبر؛ بداية جديدة في أرض جديدة. خارج هذه الأرض توجد مساحات شاسعة تم هجرها أيام المجاعة، نستطيع أن نجد أرض صالحة نعيش فيها ونزرعها بالحب والنور بعيدا عن كل هذا الظلام.

كانت الفكرة كشعلة ضوء في نفق مظلم، التقت نظراتهم ورأوا في أعينهم الأمل..

وتعلقت سارة بعين ليلى، بحثت فيهمأ برجاء عن المغفرة، كانت تريد أن تعتذر لها، ولكن كيف تعتذر لها على قتل أبيها ومرض أمها؟! هل تكفي كلمات الاعتذار؟!

لكنها شعرت ببادرة أمل حين لم تر في نظرة ليلى لها أي كراهية، الحزن فقط هو الجالس على عرش نظراتها، فحيث الندم لا مكان للكراهية فهي تصاحب فقط الغضب والطمع والأنانية. أما الحزن والندم فهما نافذة الروح على إنسانيتها الغائبة.

****

كانت عملية هروبهم سهلة حيث استغلوا الاضطراب الموجود وبطء عودة الاستقرار الأمني. وشخصياتهم التي لم يتم التعرف عليها بعد، لم يجد عصام صعوبة في إقناع أمه بالرحيل معه، كذلك فعلت سارة مع والدها حيث ساعدها عصام على إقناعه، وبمساعدة سارة اصطحبت ليلى

أمها من المشفى وشعرت بالفرح حين أخبرتها سارة أن التقرير كان زائفا وحالة أمها يمكن علاجها، لم تخبرها بالدور الذي قامت به للتسبب بمرض أمها، اكتفت فقط بأن أعطتها الأمل في علاجها وليلى لم تسأل كثيرًا، فكرة أن تعود أمها إليها كانت كل ما اهتمت به، ورحلوا جميعا مخلفين ورائهم عالمهم القديم لينشئوا عالما جديدا، لن يكون مثاليا بالتأكيد ولكنه أقل ظلما وأكثر نورا..

تمت بحمد الله

واقرأ أيضًا للكاتبة:
الحزن يرحل سعيدًا
يا مريم أنا اعتذر
سامينا
نرد بلا أرقام
وهذا بريد الكاتبة للتواصل:

Smsmayoussef504@gmail.com